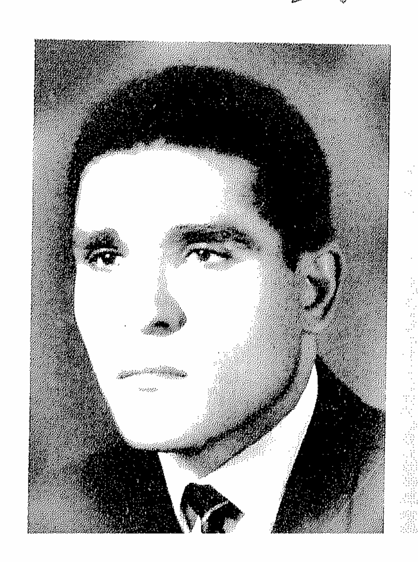
دار الشروق

الأعمال الشعرية

محمد عفيفي مطر

من مجمرة البدايات




من مجمرة
البدايات

الطبعـة الأولى

١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

الأعمال الشعرية

محمد عفيفي مطر

من مجمرة البدايات

دار الشروق

للمجمرة حضورُ الرّمادِ والحصى وشررِ
الاحتمالات،
تُقَلِّبُها أصابعُ الكهولة وتَتَلَقَّطُ من أكوامها
بعضَ ما كان يهزّ الصِّبا من انفعال
أو بصيصِ تَوَقُّد أو ارْتعاد إرهاصاتٍ مرتبكة . .
أخْليتُ المجمرةَ من رماد كثير،
واستبقيْتُ بعضًا من حصَى التذكُّرِ الحميمْ.

«محمد»

فِرْدَوْس.. بائعة المانجو

يا زمنًا قد مَرَّ علينا . . لو كنتَ تعودْ
وتذيبُ ثلوجًا، وتعيدُ حكايةَ أهداب سُود
كنا نهواها، ننظر فيها سحر الإنسان،
وحلاوةَ عشقٍ سكرانْ،
ونداوةَ غيطانِ القرية
لكنك - يا زمنًا قد مر - زجاجٌ مكسورْ، .
ثلجٌ، وشراعٌ أعْمَتْهُ الريحُ الصفراءْ

لا بأس إذا كانتْ رحلتُنا فوق الأمواج
أذْوَتْ نَوَّارًا كان يرفُّ بخدَّيْك
سرقتْ كحلاً قد كان يزوِّق جفنيك
لا بأس وإن أضْحتْ أهدابُك ناصلةَ اللون

وصباك نثارَةَ موال مَنْزُوف اللحن
لا بأسَ إذا أضحىٰ النهدانَ غضونًا شائخةَ العمر
وروائحُ بستان المانجو ما عادتْ في الثوب تفوحْ
يا أختُ. . ولا بأس إذا عشْنا في التيه كطيرٍ مذبوحْ
ما دمنا لم نفقد في الرحلة نُبْلَ الإنسان،
ونداوةُ غيطان القرية ما زالتْ تعبقُ في الروحْ
ما دمنا نملك أن نحيا رغم الأحزان
ما دامت خضرةُ قلبَيْنا تنمو أشواقًا وسنابلْ

أعوام يا فردوس!!
وعشناها في التيهْ!!
عشنا سوًاحا تبحث روحانا فيهْ
عن ثوب، وبقايا ظلٍّ، ورغيفْ
وهنيهة نومٍ في حضْنِ أليفْ.

فردوسُ!!
لقدْ أوحشْتَني والله نداؤُك بين الحاراتْ
يا صوتَك حين يعود إلى أذني!!
أنسى الأيام الصفراءْ
ويعودُ صبايَ يرنّحه عطرُ المانجو
... أهلاً فردوسُ وسهلاً، كيف الأحوالْ؟!!
يا أختي..
كل الأحزان إذا مرتْ ماتتْ
ما دُمنا نضرب في التيه
كي تبحثَ روحانا فيه
عن ثوب، وبقايا ظلٍّ، ورغيفْ
وهنيهةِ نوم في حضن أليف...

١٩٥٧

* * *

قبْضُ الريـح

ونامَ الهمسُ، ماعادتْ سوى الأفكارْ

تدبُّ ثقيلةَ الأقدام بالأسرارْ

وألقى الصمتُ أقفالاً بثغرينا

فما قلنا . . وما كانت لنا القدرة

وحامتْ روحُنا السكرى خطى عصفورْ

على باب الهوى تهنا

وذابَ الكونُ، في درب الهوى ضعنا

فما عدنا سوى ظلَّين قد عاما على موجة

نجوب البحرَ . . لا نجمٌ ولا ساحلْ

وأصبحنا على ثغر الهوى قصة

سكتنا والهوى باحا

فقلناها بكفينا

وثرثرنا بجفنينا
وفي درب الهوى تهنا
فما عدنا سوى ظل بريء الروح
ترنِّحه ظنونُ الصمت والأسرار

. . . .

وهبَّت نسمةٌ عطْشى، وشبَّتْ نارْ
وسيفٌ شقَّ قلبَ الصمتِ كالإعصار
وشيخٌ جاء من دنيا نسيناها
على جَفْنَيه قد هاجَتْ تواريخٌ وأمثالُ
وفوق لسانه دارتْ تهاويلٌ من الحكمة:
«سيَذْرو الموتُ من فيها
ويبقى اللهُ باريها ومُفْنيها»
فرد الشيخُ دنيانا التي كنا نسيناها
كما تمضي عن السكران أطيافٌ من النشوة
.. وكانتْ قبلةٌ عمياءُ.. لا رَوْحٌ ولا ريحانْ..

وكان الوعدُ باللقيا مساءَ السبت في زورق
لنقضي الليلَ روّادًا بلا نجمٍ ولا ساحلْ
وكان وداعُنا غيمًا من الأحزان .

. . . .

وحطت في سكون الليل أسرابٌ من الأفكارْ
تُهَوِّمُ في مناقرها أفانينٌ من الأسرارْ
وشَعَّتْ في جبين الصمت عينُ الشيخ بالحكمة :
«سيفْنى كلُّ ما فيها
سيَذْروُ الموتُ من فيها
ويبقى اللهُ باريها ومُفْنيها»
سيبقى الله - يا عمري - ونمضي وَهْمَ أسطورة
خَطَطْناها بظلينا على أيامنا الصفراءْ
وهذا الحبُّ . . هذا الحبُّ . . لو كنا مَلاَكيْنِ ! !
نرفْرفُ في انعتاق الروح . . لا دنيا ولاَ أزمان
ونحيا الحبَّ . . لو كنا مَلاَكيْنِ !

على الدنيا طليقين

لما مدَّ الردى كفًا بعشٍّ فيه قلبانا

يعيشان الهوى لحنًا بريءَ الروح مخضراً

ويحيانا الهوى قصة

ولو كنا . . ولكنا حكاياتٌ لها آخرْ

سيمضي بعدها الحاكي مع السامر

رمامًا في سيوف الموت . . لا إحساسْ

ولا أحزانَ، لا أفراحَ، لا أنفاسْ

ويا ليلايَ قد أطعمتُ روحَ الليل أحزاني

وأورادي وألحاني

وهاجتْ في عروق الصمت كاساتٌ من الأفكار

وفي عينيَّ شادوفٌ يصب الليلَ أوهامًا ضبابيَّةْ

ودوّامات أشباحٍ، وغُدْرانًا من الآهاتْ

تعومُ على حوافيها تصاويرٌ خرافية :

أفاعٍ تأكل الأضواءَ . . حتى الشمسَ تأكلُها،

عبيرُ الزهر مسمومُ الخطى يلهثْ ،
وغاباتٌ هُطولُ الريح بعثرها ،
ودودٌ يحفرُ الساحل
يواري فيه إنسانين مسحورين . .

ويا ليلايَ . . لو أنَّ الكرى يَخْطُرْ
على عينيَّ كيْ أرتاحَ . . كيْ أرتاحْ !
وأحضنَ طيفَكَ المخمورَ في جفنيَّ حتى الصُّبْحْ
وكيْ أنسى نبَاحَ الجرْحْ
وأنسى رجْفَةَ الطاحون
إذا ما دارَ هَدَّاراً على الأحياء . . .

١٩٥٨

رسالة إلى شاعر سجين

«إلى الشاعر السجين بدر شاكر السياب»

ماذا يقول بلبلٌ حزينْ

ماذا يغني في ضمير الليل شاعرٌ سجينْ

زوّارُه: حكايةُ الدموع حين طهرتْ ملامحَ السنين

وصوتُ نخلة بشاطئ الفُرات تشربُ الضياءَ والمطرْ

وصورةُ الكروم وهيَ تحملُ الثَمرْ

وصورةُ المساء وهو يحمل الظلالَ والقمر

وصورةُ النساءَ حينما يرقدن رقدة المخاض

ماذا يقول حينما يرى على الجدار قصة البشر؟!

* * *

أنا هنا.. وجهي بلون الطمي والغلالْ

أعيش في الريف وأعشق الحديث عن مفاتن الجبال

وأعشق الشعر وأعشق الحديث عن صلابة الرجال

والنيل صَبٌّ في دمي تمرُّدَ الخيال

* * *

من ليلتين جاءني لحنٌ مجنَّحٌ وثيرْ

صاف يدور هائمًا في المقطع الأخير

تَمزَّقتْ حروفُه عن وجهكَ المنير

أطْرقْتَ يا «بدرُ» . . ضحكتَ . . قلتَ لي :

أنا هنا . . وجهي بلون التمر حينما

يسيل فيه سكَّرُ العصير

أنا هنا . . يشدُّني إلى الجدار حارسٌ ضريرْ

فلا أرى الشمس، ولا أرى النخيل وهي

تسكب الظلال في مسارب الأصيلْ

ولا أرى الحُبالى في مفارق الطرق

ولا أرى طيش الطيور في الأفق

. . شيءٌ وحيدٌ يقطع السكون كيْ

أظلَّ ساهرًا إلى الصباح :

صوتُ النخيل وهي تلعن الضياءَ والمطرْ
تقول: حتى الآن لم تأت مواعيد الثمر؟!
حتى مخاض الشمس لن يجفَّ جرحُك الحزين
لكنني - يا بلبلي السجين -
أعشق في عينيك طيبة الجبال
أعشق زندك المفتول من صلابة الرجال

* * *

على النجوم فارسٌ معفَّرُ الإزار
مرعى جواده الأقدارُ والشرارْ
أتى، وسار في بلادنا، ودار
ودقَّ دقَّةً على الجدار وابتعدْ
وقال: موعدي - يا أيها السجين - بعد غد
لنحفرَ القبورْ
وندفنَ الآلهةَ الصغار

١٩٥٩

* * *

الملكة واللوردات وآخرون

(١) بيان

أنا طفلٌ طريُّ العود . . سرتُ سنين فوق الجسر عريانا
تفوحُ خطايَ نارنجًا وليمونًا
وعشتُ بقريتي خمسًا وعشرينا
أسامر كوكبا في الغيم مسجونا
أطارد نحلةً سوداءَ في الظلمة
وأبحث في أعالي النخل عن «رامخ»
أمر خلال بواباتنا السوداءْ
وأسمع في حنايا الدور صوتَ رثاءْ
يُشيِّع في ضمير الأرض موتانا
وأحفظ ما يقول الناسُ في الطرقات

فتاتُ كلامهم شعرٌ بلا راوٍ يغنيه
ويشفي العالمَ المصدورَ من ترياقِ ما فيه
وعشتُ بقريتي خمسًا وعشرينا
عشقتُ الشعرَ من أيامي الأولى
وغايةُ مقصدي: لو صرتُ بين السادة الشعراء
ولو عبدًا . . أسيرُ وراءهم والرمحُ في كفي
وأرعى الخيلَ، أحرسُ بابَهم في الليل
كي يستلهموا الكاسات
وعشتُ بقريتي خمسًا وعشرينا
أسامر كوكبًا في الغيم مسجونا
أنا استَرْحَمْتُهُ خمسًا وعشرينا
ليلمسَ قلبيَ العاري بخيط ضياء
وعشت لهذه السنوات مجهولا
لأني قد حُرِمْتُ مهارةَ الشعراءْ
فلا شعري معلقةٌ على السلطان أتلوها

ولا حَوْلِيَّةٌ شَعَّت بنور الحكمة العليا قوافيها
ولا أتقنْتُ كيف تُلَوَّن الكلماتْ
ويا أسفا على السنوات!!
مضت جوعانةً، قفرًا، ولم أشبع بها يومًا
ولو من خبزها الأسمر
ولكني أتيتُ.. معي كليماتٌ من القلب
أنا رَوَّيْتُها التصوير من قلبي
أنا روَّيْتُها الإيقاع من خصبي
لعلَّ الشاعرَ الريفيَّ يا شعراءْ
يسير وراءكم بالرمح والسيفِ
أتَنْتَهِرونَه لو كان يحرس بابكم في الليل
كيْ تستلهموا الكاساتْ؟!

* * *

(٢) الملكة واللوردات

جلالتُها لها رجلٌ كما لبقيَّة النِّسوة
ومخدعُها ككل مخادع النسوة
ومن شهرين دقَّتْ ساعةُ الميدان
وأعلنَ فى بلاد الأرض :
ربةُ تاجنا وضعتْ فصارتْ ربةَ التاجيْن
ودقتْ ساعةُ الميدان
وسار جنودُها الفرسان
على صهوات أحصنة مُطَهمَّة يغنّونا
وجُنَّتْ جوقةُ العُزّاف شكُراناً
وكان الشعبُ فى البارات سكرانا

يغنى : عاشت الملكة
ودقتْ في انتصاف الليل أجراسُ
وغنى شاعرٌ فحلٌ وقسيسُ
وأرغنُ عازف أعمى، وقُدّاسُ
وصُبَّ على جبين مسيحهم كاسُ
معتقةٌ فأخمدَ فيه أنفاسُ
ولم تَطْرفْ له عينٌ ولم يمنحْهم البَرَكَة
وفاح الخَمرُ في الماخور يهتفُ: عاشت الملكة
وجاءتْ مركباتُ الليل باللوردات
سراويلٌ مرصَّعةٌ على الأكتاف،
ألسنةٌ وملْويَّة
وأحذيةٌ وأثوابٌ مدلاةٌ وموسيقى
تَهَزُّ القصرَ، تهتف: عاشت الملكة
وأعينهُم زجاجٌ أزرق النظراتْ
وجامدةٌ تحدِّقُ في مهاوي الظنّ لكن لا ترى شيئا

سوى الدنيا التى ترمي لهم بالقمح والمطاط والذهبِ
وسوقِ الشرق حين يبيع جاريةً
مُحَمَّلةً بفيض الزُّبْد والعنب
وأسطول يلفُّ البحرَ كالتمساح يجلبُ كلَّ
ما فى الأرض من خيراتْ
ودقَّتْ ساعةُ الميدان . . .

* * *

وكان بقلب إفريقيا فتى أسمرْ
يعلقُّهُ جنودُ انجلترا ليلاً على الأعواد
ويقرأ ضابطٌ أعمى :
يموتُ لأنه قد خان جنْدَ جلالة الملكة
ومات . . لأنه قد خان عهد جلالة الملكة
ودقتْ ساعةُ الميدان . . .

* * *

ودقَّ الطبلُ فى الغابة

فغاص الحبلُ فى الحِقْوَيْن
ولفَّ السوطُ بالنهدين
وخرتْ فوق ركبتها . . ويا للمرأة السوداء
بإفريقيا . . وكان الصبحُ قد شابا
عروقُ القار كانتْ تشربُ الصَّابا
لها طفلٌ، وجَفَّ بثديها اللبنُ
فمات الطفلُ . . لم يُسْمَعْ له صوتٌ
ولا غطاه من حَرِّ اللظى كفنُ

ودقتْ ساعةُ الميدان
ومرتْ من أمام القصر كوكبةٌ من الفرسان
تهزُّ الأرض، تهتفُ: عاشت الملكة
ودقت ساعة الميدان
ودقت ساعة الميدان . .

* * *

(٣) فلاسفة وشعراء

وكان المكْتَبُ المدْهونُ بالقارِ
عليه الجوخةُ الخضراءُ شيطَانٌ بلا دارِ
عليه إناءُ فخّارِ
به أعوادُ أزهارِ
عليه شمعةٌ أكلَتْ حشاها شعلةُ النار
وغُليونٌ يفوح دخانهُ الضاري
وفنجانٌ على جدرانه خيطٌ من القهوة
وكأسٌ ما بها قطرة
وأوراقٌ مشوَّهَةٌ وجلدُ كتابْ
وشيخٌ مُطْرِقٌ تتحدثُ الأيامُ فى عينيه

يُقَلِّبُ صفحةً بيضاءْ
يُشَوِّهُها، يخطُّ طلاسمًا سوداءْ
ويستوحي جنونَ الريح آيات وأشعارا
ويستوْحى سكونَ الليل أفكارًا
ويسمع في قُطَيْرات الندى حكمًا وأسرارا
ويهدم هذه الدنيا ويبنيها
وينثر زيفَ دنياه على الدنيا
ويكتب في بداية صفحة بيضاء: يوتوبيا
فيرسم لوحةً مزهوَّةَ الألوان
عن العشاق، إنسانيةِ الإنسان..

أفقْ يا شيخُ..
وانظرْ جندكَ الأبطال في أرضي
وكيف يموتُ أو يحيا بها الإنسان
فلونُ المكتب القاريِّ لونُ الجوع فى كبدي

وشمعكُ دهنه دهني ، ومن جسدي
وخمرُك شعلةُ الإجهاد في الأيدي
وحبرُك لونُ أوْجُهِنا إلى الجلاد بعناهُ
ولم يدفعْ لنا ثمنا
سوى كلماتك الذهبيةِ الإيقاعْ . .

* * *

(٤) موت اللورد بيْرون

«ميسو لونْجي» . . يدٌ في الثلج ترتعدُ

وقلبٌ في جنون الريح ينتفض

وكان الشاعرُ الفوّارُ تأخذُ جسمَهُ الحمى

وشبّانٌ تمزّقُ روحَهم ثورة

أمالوا الرأس وانتظروا نهايةَ شاعرٍ ثائرْ

أتى في الليل، يلمع فوق سُرَّته قِرابُ الخِنجر الباتْر

وغنّى غنوةً لهيبة الإيقاع للسلطان :

«سندفن جيفة السلطان

سندفن جيشكَ التركيَّ مدْحوراً بلا أكفان

ستهوي في تراب الأرض أعلامٌ بلا ألوان

ونرفع رايةَ الحرية الحمراء فى الدنيا
وتحيا مرةً أخرى شموسُ الفكر فى اليونان
ويزحفُ من قبور الثلج سقراطٌ وأفلاطونْ»

وشبانٌ تمزق روحَهم ثورة
أمالوا الرأس وانتظروا نهاية شاعر ثائر
تمزّق جسمه الحمى وينتفضُ
يسيل الثلج في عينيه، كان الموتُ في كفيه يرتعدُ
وكفَّ القلبُ عن خفقانه لحظة
ومات الشاعرُ الفوّارُ ما صلى على جثمانه كاهن
ولا دقَّتْ نواقيسٌ، ولم يُحْفَر له قبرُ
بأرض الثورة الحمراءِ لم يُحفر له قبرُ

ودقَّ الحزنُ في قلب الشباب الثائر الجوعانْ
وأطرق في جنون الريح قلبُ الثورة الظمآن

وكانت لندن الجوفاءُ تعزف لحنها السكران
تحيي جندها الشجعان
تشيِّع جيشها الغلاَّبَ يأكل هذه الدنيا
ويأتيها بجاريةٍ محملةٍ بفيض الزبد والعنبِ
وكنز القمح والمطاطِ والذهبِ
وكانت لندن الجوفاءُ قبر الشاعر الثائر

* * *

سيُلقي الشاعرُ الريفيُّ صرخَته إلى الشعراء :
إذا ضجت أغاني الظلم في الميدان
ودار العيدُ والأفراحُ للطغيان
وعاد الجيشُ بالأسلاب والأسرى
فسيروا في جلال الركب ، وانتحروا
رَشَاشُ دمائكم سيُشَوِّهُ الأعيادْ
رشاش دمائكم سيلطِّخ الجلادْ
فقد يُشقيه صوتُ الموت حين يغُرُّه النصرُ

ويُفزعه رشاش الدمِّ في الميدان
وأسراهم سيبتهجون حين تُنكِّسُ الأيدي
وتهْجَعُ غنوةُ الغلاَّب، تصرخُ ثورةُ القيدِ
ويصبح عيدُه يومًا يرتِّل آيةَ النكد
يقولُ الشاعرُ الريفيُّ: يا شعراءْ
دعوا الكاسات، والأزهارَ، والحريةَ
الذهبيةَ الألوان . . . وانتحروا

* * *

(٥) المسيح في أحراش إفريقيا

مسيحُ العصر سار مزوَّقَ اللَّقَبِ
يشعُّ صليبُهُ الذَّهبي
وليس بصدره جرحٌ، وفوق جبينه تاجٌ من القصبِ
له قلبٌ من الخشب
وينشر نَفْثَه الوثنيَّ في الغاباتْ
يعلمها صلاةَ الزيف والنُّصُبِ
ويقرأ صفحةً سوداءَ من إنجليه الأسودْ
ويبني من بقايا السود من آلامهم معبدْ
يسوعُ.. يسوعُ. قد قتلوكَ،
صرت حكايةً تُسْرَدْ

على الجوعان كي ينسى
على المقتول حين يُضَرَّجُ الرمسا
أجلْ . . قد صرتَ أكذوبة
رجالٌ مثلنا جعلوكَ في الغابات أكذوبة
لننسى أننا جيَفٌ على أبوابهم في الليل مصلوبة .
مسيحُ العصرِ ألّهَ نفسه جيشًا وأسطولا
أقام ديانةَ الأنصاب كي يغتالَنا ذهبا وبترولا
وسارَ مُزَوَّقَ اللقبِ
له قلب من الخشبِ
وليس بصدره جرحٌ، وفوق جبينه تاج من القصب
يزينه بصلبان من الذهبِ
ويقرأ صفحة سوداءَ من إنجيله الأسودْ . .

* * *

(٦) الشعر

دعوا التشطيرَ والتخميسَ . . هذا الشعر أجداثُ

وأوهامٌ مُخَرَّقَةٌ وأضغاثُ

دعوا الخيَّامَ يشربُ كأسه وحده

ويلعن ظلمة الحفرة

ويشكو قسوةَ الأقدار للندمان

دعوا «شوقي» يسبح ربه السلطان

ويلبس تاج مملكة مزيفة بلاتيجان

دعوا الموتى . .

فكم سفحوا محابرهم على الأعتابْ

ومدوا كفَّهم للرِّفْد والخِلْعَة

ويا أسفا . . مضوا . . تركوا حروفا

طُرِّزَتْ بالوشْيِ والصنعة

وليس بها عبيرُ ترابْ

وليس بها عبيرُ الليلِ حين ينيرهُ الإنسان

ببعض عذابه، بالجوع، بالحمى

وهذا العصر – رغم جفافه – يشتاق للكلمة

إذا سارتْ على قدمين

وغاصتْ في رياح الأرض، والتمعتْ بنظرة عين

وسارتْ في الدم المشبوبِ جمرةَ نارْ

وشَفَّتْ عن ضميرِ القاعْ . .

* * *

(٧) كلمة نفسي

أنا طفلٌ. . وأعلم أنني طفلُ
وعشتُ بقريتي خمسًا وعشرينا
أسامر كوكبا في الغيم مسجونا
وأعلمُ أني سأعيشُ أصغرَ شاعرٍ،
وأموتُ مجهولاً ومغبونا
ولكني سأطلق في لهيب الصدق أوجاعي
سأبحث من خلال الموت عن أغنيَّة الميلادْ
سأدفن مهجتي في الأرض كي تنمو بخضرةِ عودْ
وسوف أعيشُ جرحَ تَفَرُّدي في الأرض،
أتركُ ضجةَ الأعيادْ

وأحيا عزلتي سَفَرًا بجْوف كتاب
وأمضغ حسرتي وحدي
سأترك جيلنا الصخّابَ، سوف أحدثُ
الآتين بعد غد:
تركتُ علامتي في الأرض بعضَ دَمٍ على الطرقاتْ
وعشتُ بقريتي خمسًا وعشرينا
أذوق الموتَ، أشتعلُ
لتحملَ صفحةُ الأيام رائحتي إلى الأجيالْ
ليحمل حائطُ الأيام آثارًا لأنيابي
ولفظةَ نفسيَ المجهولة الأبعادْ
وصورةَ وجهيَ المعروقِ، صورةَ عالمي الموحشْ..

١٩٥٩

* * *

غواية مستحيلة

(١)

صبيٌّ ضائعٌ في الريف ينهشُ صدرهَ الداءُ
وحيدُ القلب، مهجورٌ، وفارغتان كفّاهُ
طريحٌ في مهب الريح، غائمتان عيناهُ
غريقُ الأمس.. ليت الأمس يهجره وينساه
غريبُ اليوم.. دَوَّخَ عمرهَ الطوفانُ والألمُ
صبيٌّ ضائع.. أواه.. فلْيستطْرِد القلمُ
لننس الآن يا قلمُ
حكايةَ ذلك الريفيِّ.. ولْيتوهَّج النغمُ
لتضحكَ أحرفُ الديوان أو تبكي
وقبل البدء فلنقسمْ على الإخلاص والصدقِ
ولوْ ضِعْنا بمُزْدَحَمٍ.. ولوْ ضعنا..

* * *

(٢)

نسيتُ الجوع واستلقيتُ فوق حشيَّة القشِّ
وخُيِّلَ لي كأني بلبلٌ قد طار في الدنيا بلا عش
بصدري صورةٌ محفورةُ النقش
أحدِّق في سكون الليل منهومًا . . بأغواري
سؤالٌ زئبقيٌّ الروح :
أين أرى فؤاد الحكمة العاري
لأقبسَ جمرةً منه لأشعاري
تريني في الدُّجى لوني، حقيقةَ قلبيَ الضاري ! !
سرحتُ بخاطري في الليل ، أثقَلَ جفنيَ الخَدَرُ
أَلَمَّتْ بي رؤًى مسحورةٌ رفَّتْ بها صورُ
«مِفْستوفليسُ» لَوَّنها وأغواني
بصوتٍ ناعم النَّبْرِ

وساومني ومسَّ مكامن الأحزان في عمري
ولَوَّحَ لي ببشرى الخصب والشعرِ
وقال : تبيعُ عمركَ لي !
تبيع شبابكَ الحيرانَ في دوامة الفكر ! !
فأمنحُ روحكَ الملهوفَ للحكمة
خفاياها ، وأمنحُ شعرك الجوعانَ من
نيرانها قَبَسا
فقلتُ له : لتقرأ ذلك المسطورَ في صدري
هنا صَكٌّ من النيران في قلبي
بأني بعتهُ طفلاً بلا ثمن سوى لقمة
. . . .
«مفستوفليس» قَهْقَهَ ساخراً مني
وجرَّ وراءه ذيلاً من الأضواء
وخَلَّفني وحيدَ القلب مهجوراً
أحدق في سكون الليل مغموماً . . بأغواري

سؤالٌ زئبقيٌّ الروح :
أين أرى فؤاد حقيقتي العاري
لأقبس جمرةً منه لأشعاري!!
. . . .
وحين صحوتُ كان الخبزُ في الميدان يدعوني
وفي الشبّاك خيطٌ حائر النورِ
يطاردُ ليلةً مرتْ بلا شعرِ . .

١٩٦٠

* * *

من أغاني الحواكير

(١)

كان كالنخلة . . ذا وجْه مُدَوَّرْ
وعلى صدغيْه وشمٌ لحَمامات وقُبَّرْ
وعلى ظاهر كفيْه رسومٌ لصبايا البحر تسْكَرْ
وأبي زيد، وخيلٍ تتأطَّرْ
لفَّ أذنيه بمنديلٍ معفَّر
ومضى يشرح لليل فنون الضحكات
علَّمَ القرية أن الضعفَ يمحوه من القلب
ارتشافُ الضحكاتِ الصافياتْ
علم القرية أن الهمَّ أنثى
يُطفئُ الضحكُ صباها

علَّم القريةَ أن الحزن ساعاتٌ تزولْ،
غنوةٌ باكيةُ الأحرف يغتالُ طلوع الشمس من
أحرفَها السود صداها
كان كالنخلة . . ذا وجه مدوَّرْ
حينما يمشي يحكُّ النجم بالشَّعْرِ المعفَّر
لفَّ أذنيه ولفَّ الشالَ حول الكتفين
ظلُّه لم يكُ ذا وَقْعٍ . .
فلم نشعر به لحظةَ ماتْ
دارت الشمسُ ولم تشعر به لحظةَ ماتْ
ظله لم يك ذا وقع . .
ولم يزحمْ طريقَ السائرينْ
وانتظرناه . . فلم نلمحْهُ بين العائدين
كان كالنخلة ذا وجه مدور
ذكرُه رُقْيَةُ أحزانٍ تذودُ الليلَ
عنٍ قلب الحيارى المتعبين . .

(٢)

وقف الموتُ على الشباك ساعاتٍ طويلة
كان في هيئة صَقْرٍ ضامرٍ . .
يسمعُ أنفاسًا ضئيلة
يرقبُ الشيءَ الذي يضحك في نظرةِ
طفلٍ عاش أيامًا قليلة
أمُّه تشربُ من أنفاسه عطرَ الطفولة
أمه تحضنه في حِجْرِها، تقرأ في
عينيـه آيات جميلة
وتذودُ الموتَ عنه بالتسابيح الطّويلة
أطْرَقَتْ - والنومُ سلطانٌ - فنامتْ لحظتين
أطرقتْ . . فانْقَضَّ صَقْرُ الموت في غمضة عين

ينهشُ الطفلَ، يُعري صدرَهْ، يأكلُ صدرَهْ
طار . . في منقاره قلبٌ صغيرْ
وبقايا من دمٍ تسقط إثْرَه
وأفاقتْ أمه تسألُ:
ما للشــدي قــد أصبـــح صخـــرة
تُثْقلُ الصدرَ. . أما للطفل قطرة؟!

(٣)

مرَّ في الليل غريبٌ يسألُ الرِّفْدَ

فعضَّتْه الكلابْ

طرق الأبوابَ . . لم يُفْتح له في الليل باب

سمعَ الناسَ بجوف الدور كالأرض الخرابْ

يتباكوْن ، يصلُّون ، يشقُّون الثياب

خوفَ أن تنقضَّ أسوارُ المدينة

خوفَ أن يكشفَ نورُ الصُبح أسرارَ العفونة

وتمطَّى الحارسُ الأعمى ، ونادى : مَنْ هناك؟!

- شاعرٌ يَمْرُقُ عبرَ الليلِ

- ماذا قد رماكْ؟

- حكمةٌ أرغبُ في نشْر لواها .

- من يدي خُذْها . . أيَا صوتَ الجريمة .

مات في الليل غريبٌ يسألُ الرِّفْدَ ولم يُفْتَحْ

له في الليل باب . .

(٤)

بائعُ المرمر والتفاح نادى :
هذه النّاهدُ ربّاها سلاطينُ العجمْ
لم تزلْ بكرا . . أنا أكره بيع الثّيِّبات
وَرْدُها طفلٌ وبلورٌ ودمٌ . .
مَدَّ عينيه إلى البلّور سلطانٌ هَرِمْ
أشعلَ الشهوةَ في الثلج انكسارُ النظراتْ
وَهَبَ البائعَ كيسين . . اشتراها
ومضى يهرش آثارًا قديمة .
كان عبدًا . . صارَ سلطانًا يُنادى باسمه فوق المنابر
باسمه تُهدم أو تُبنى مدينة
كان عبدًا . . أثر النخاس بين الكتفين !

(٥)

كان فوق الصفحة الصفراء نقشٌ كادَ يُمحْى
أحرفٌ سودٌ حواليها إطارْ
كانت الأحرف من نبش أبي وهو صغير
حينما «جاور» في الأزهر أياما قليلة
كانت الأحرف : «يا دنيا الرذيلة
سعيُنا في الأرض لا يُجدي، ويأسٌ وضلالة . »

كان فوق المنكب العاري صليبي
كان جرحٌ في يدي يلعق جرحًا
وحبيبي لم يعدْ بَعْدُ حبيبي
سرتُ مكسورَ الصِّبا أقرأ في الليل كتابي
وعرفتُ الموت في شرخ الشباب

وعرفتُ الجوع والسمَّ وأيام الضياع
وعرفت السُّهد في الغربة ، والجرحَ الذي
آكلُ منه
كانت الأبوابُ صمّاءَ . . ولكني أتيتُ
بعد أعوامٍ إلى منزلنا الصامت جئتُ
ووجدت الأحرفَ السوداء تخبو في الإطار
وعلى هامشها الأصفر بالدمِّ كتبتُ :
«حكمةُ الريح تهاويها على الأرض البراح
حكمة الإنسان أن يبحث عن حكمته ليل صباح
حكمة الإنسان أن يحفر قبل الموت قبره . . »

(٦)

عامك السابعُ يا «أيوبُ» جاءْ
لم يعد فوق العظام الزرق لحمُ
كفّك الميتُ ما عادَ يُضَمُّ
بابُك المغلقُ، والزوارُ أطيافٌ تمرُّ
مرقدُ الشوك، سويعاتٌ من الموت، وجمرُ.

سقط اللحمُ ومات الدودُ يا أيوب جوعا
حينما غبتَ سويعات برؤياك الجميلة
غائمَ العين ترى في الأفق آيات المطرْ
تسمعُ الريح تغني في ذؤابات الشجر
وترى ملعبَ أطفالٍ لهم في الصدرِ وَقْعُ.

لم تزلْ تحمل في قلبك صوفية أطفال صغار
لم تزل تحمل خصب الأرض، حُلمَ الإخضرار
وصفاء الروح والحبَّ وأشواقَ العصافير السجينة.

عامك السابع يا أيوب فات
شرب الموتُ به كأس الهزيمة
فاغتسل في النبع يا أيوب..
واضحك من جديد..

١٩٦٠

الطفل والحزن

«إلى عامي الخامس والعشرين»

كان يَهْوىَ السيرَ عبر الطرقات المظلمة
حينما يهتزُّ في العتمة قنديلٌ بعيد
ويرى القريةَ يوم السوق تحيا من جديد
تنفثُ الدورُ عبيرَ الخبز، تهتزُّ لموال سعيد
تنفثُ القدرُ عبيرَ اللحم والأفران دفئًا ودخانا
ويرى الصِّبية يسقون حقولاً من تراب.

كان يهوى السيرَ في الأرض الرحيبة
يملأ الصدرَ عبيرًا ورطوبة
يرفع الثوبَ ويقتاتُ من الأرض خصوبة
ويشمُّ الماء والطين، يغني حينما يلمسُ في السنبل نِعْمَةْ

كان يهوى الشُّهْبَ إن دارتْ ذيولاً من وهج
وتلوَّى ضوؤها فوق المياه
كان طفلا يعشق الليل ويهوى أن يعود
حينما يسمع تثْويبَ المآذن . .

ومضى . . ذات مساء
يتغنى للقناديل البعيدة
والمواويل السعيدة
وجمال الأرض والليل العميق
ورأى عبر الطريق
شبحًا يرمي على الماء حجارة
قال للطفل : «أنا في الإنتظار»
قد ترقَّبْتُك ليلات طويلة
يا صديقي . . فَلنسرِْ بعض هنيهاتٍ قليلة»

ومضى يعبثُ في صدر الغلام
عصر التفاحةَ الحمراءَ في صدر الغلام
ومضى في الظلمة السوداءِ، لا همسٌ، ولا رَجْعُ كلام

ومضى الطفلُ..
ولم يسمعْ تواشيحَ المآذن
لم يعد يذكر في جَرْسِ المواويل عذوبة
شبحُ الحزن قد اغتال القناديلَ البعيدة
وغدا الليل حكاياتٍ عن الموتى الصغارْ.

وأتى يوما على الحيِّ غريبْ
كان في كفيه جرحٌ، وعلى الصدر علاماتٌ غريبة
وبعينيه بقايا من صلابة
ودلالاتٌ خفياتٌ وطيبة.
قال: إن الحزن قد طاف عليا

حينما جفتْ من الزيت القناديلُ البعيدة

وطوى الليلةَ طيا

وطواني إذْ طوى الليلَ وصبَّ السمَّ في ماء الحياة

غير أني – والردى يلهثُ في قلبي – انطلقتُ

أنظر الأرض التي شاختُ وما زال الصِّبا في كتفيّا

لم أزلْ طفلاً وحُمِّلْتُ على صدريَ آلامَ الرجالْ

كان حزُن الجيل في قلبي . . ولكني أتيتُ

عاميَ الخامسُ والعشرون مازال يطيرْ

باحثًا عن ذلك الطفل الصغيرْ .

١٩٦٠/٥/٣٠

* * *

كلمات حُبْلى

١٩٦٠

(١) دمعة على قبر قتيلٍ مجهول

نحن في الأرض شموسٌ مُطْفَآتْ،

نطفةٌ لم تتمسّ الروحُ فيها وعلى

مائدة الموت فُتاتْ

مُذْ مشى الخوف على هاماتنا، ينفثُ فيها،

يسرقُ الخضرةَ من أعماقنا

يتركنا أرضًا مَواتْ

مذ مشى الخوف إلينا في أكف الظلماتْ

وسرى السمُّ بشريان الحياة

وتعلمنا فنون الزيف، أصبحنا رموزًا غامضاتْ

قُتلَ الإنسانُ فينا.. طمرتْهُ الضحكاتُ الزائفاتْ

وأضاعتُه الدموعُ الزائفاتْ

ماتَ. يا ويلتنا. ألقتْه أيدينا بقبر من خداع الكلمات

وأدرْنا وجهنا نلتمس النسيانَ خوفًا من ظنون الحسرات

خوفَ أن ننظر في أعماقنا إنسانَنا الدامي القتيلْ

آه يا إنساننا الدامي القتيلْ

قد نسيناك، نسينا وجهك المُطرِق في رعبٍ نبيل

يحفر الصمتُ على قلبك آياتِ العذاب

وتمزقْنا خطًى مجنونةً تلهو بها الريحُ على كل اتجاه

ولبسنا من تراب الزيف أسْمالَ حياة

واغتصبْنا بسمةً تُخفي جراحاتِ الشفاه

ورشقْنا سمة الكبْرِ على ذُلِّ الجباه

وتمزَّقْنا رؤًى مجنونةً تمضغ أوحال الدوار

آه يا إنساننا. صرعتْك أيدينا ودَحْرَجْناكَ في قبر عميق

ونسيناهُ فلم يُسْكبْ على جدرانه دمعُ صديق..

(٢) كلمات منمقة

يا حبيبي . . غَلّقَتْ روحُك في وجهي طريق الهربِ
صرتُ في جمرة إنشادكَ نَبْرة
صرتُ في شطحة أوهامكِ وَهْمًا ومسرَّة
ذُبتُ في صدرك زَفْرة
تتمطى فوق تفاح وورد وعقيقْ
ونسينا غمغمات الحزن . . يا ماضي الغريق
قد دفنّاكَ، دفنّا فيكَ أيامَ الحريق
يا حبيبي . . نحن في غَوْرٍ من اللذة صافٍ وعميق
وبعيدان عن الظلمة . . عن وجه الشروقَ
فدع الأيامَ تمضي . . لا تذكرْني بأوهام الطريق

لا تذكرْنيَ باليقظة . ماذا تنظرُ العين على أرض الطريق
غيرَ أيامٍ تضيعْ
وشموسٍ مطفآتْ؟!!

(٣) إلى مغنية ضريرة

ها نحن أصبحنا وحيدين وعريانين كالأسطورة البلهاء
ندورُ . . ندورُ كالفقاعة الملساء
ندور . . ندور كالأشباح . . كالموتى بلا حفرة
فغنِّينا . . سئمنا اليقظة المرّة
دعي السكران . . والسكران لو يصحو يرى الحفرة
وقد تُشْقيه . . تشعلُ روحَه فكرة
ولا تتذكري الإنسان . . كم أشتاق لو أنساه
ولا تأتي بذكر الله
فقلبي لم يعدْ خصبا
دعي الصهباءَ تقتلني . . وهاتي الوهمَ . . ما أحلاه

أقول الحقَّ: إني قد نسيتُ الله
وأنْسانيه أني لم أعدْ حيّا ولا حرا

فغنينا.. صفي الأقمارَ والشمسا
صفي الدنيا وزخرفَها، صفي العرسا
صفي الألوانَ، صُبِّيها على الأشياء
أحبُّ غناءَك الأعمى.. لأنك لم تَرَيْ شيئا
أحقا قد رأيَت زخارفَ الدنيا وذاقتْ عينُك الضوءا؟!
ولا تتألمي.. كم ردَّدَ الشعراء أقوالاً بلا معنى
أجلْ يا أختُ.. كيف يغردُ العميانْ
وكيف يلفِّق الأمواتُ للأموات من كذب وزيف معان!

(٤) افتحي الشباك

ارحمي شباكنا الأبْكَمَ يومًا. . وافتحيه
كفاه معقودان من عامين. . لم يلعبْ نسيمُ الصبح فيه
شفتاه أطْبقَتَا على آهاته الخرساء.
وارحمي غرفتنا. . قد دبَّ في أحجارها صوتُ بكاء
حسرتي!! جفَّ الندى واعْتَلَّت الألوانُ في الأشياء،
فسدتْ بغرفتنا البقايا الباقياتُ من الهواء
وتعفنتْ أنفاسنُا، وتعفنتْ بقعٌ من القيءِ على
حيطانها
شُلَّتْ خيوطُ النور في أركانها

فارحميني . .
وافتحي الشباك . . أخشى أن أموت
قبل أن أسمع ريحا تتكلم
بالصدى من لغَط الماشين بين الطرقات
بعبير الماء والطينِ إذا دَبَّ حياةً في النبات
فافتحي الشباك . . أخشى أن أموت
قبل أن أنظر أسرابَ الطيور العائدة . .

(٥) ماذا يقول منتصف الليل

قد شابت الأرض

وطائفُ الردى بلا فؤاد

الموتُ قاسٍ، جائرُ الخطى، بلا ضميرْ

الموتُ يخنقُ الضياء والعبير

وأنتَ . . أنتَ يا مولّهًا وميتا تأكله الطيور في العراء

متى تَدُبُّ فيك شهقةُ الحياة؟!

تمخضي . . تمخضي يا نطفة الإنسان فالأرض خَلَتْ

تمخضي عاصفةً ترشُّ الماءَ في اليبابْ

وتستعيد ذكريات الحب والشباب

وتنفخ الحياةَ في التراب

(٦) دقات الساعة

الكون والليل وأطيارٌ محرَّرَةُ الجناح

ورنينُ كأسٍ فارغٍ ونباحُ ريحْ

وضجيجُ مقهى يشرب الندمان فيه دمَ المسيح

وتأوُّهٌ فَضَحَ الجراحْ

وعيونُ مومس تسألُ الظلمة عن صيد شَبَقْ

وفحيحُ أفعى تنفثُ اللذّةَ والسمَّ بأرواح البشر

وجنونُ ساعاتٍ تدُقْ

دقاتُها تتخلل الكون كأطيار محرَّرَة الجناحْ:

الدقّةُ الأولى

مرت الأجيالُ والأرضُ كثدي العاقرِ

الدقة الثانية

حفرةٌ فاغرةٌ تشكو لقبرٍ فاغرِ

الدقةُ الثالثة

فليخْلُ وجهُ الأرض من زحف البشرْ

الدقةُ الرابعة

الخوف ضاجَعها وأوْلدها أناسًا طيبين

الدقةُ الخامسة

الموتُ ضاجَعَها وأوْلدها أناسًا ميتين

الدقةُ السادسة

الحبُّ فحلٌ لم تزلْ تصبُو إليه الأرضُ من أعماقها

الدقةُ السابعة

وفِراشُها خاوٍ وعيناها انتظارْ

الدقةُ الثامنة

يا أرضُ . . يا رحمًا يعذبها الأوارْ

الدقةُ التاسعة

الحبُّ يطرق بابَك الدامي الحزين

الدقةُ العاشرة

فلتحتملْ أحشاؤُك الظمأى ارتعاشات الجنين

الدقةُ الحادية عشرة

هذا جنينٌ عبقري

الدقةُ الثانية عشرة

. . . .

١٩٦٠

الخصب وعودة الضحايا

ركعتْ تصلي الفجرَ . .

فانطفأتْ كليماتُ الصلاة

واستَتَشْعَرَتْ مُرَّ الذهول على الشفاه

كانت هنا الألفاظُ! وارتعشتْ بأحرفها الحياة

وتَحَجَّرَ الزمنُ العصيُب، ولم تؤُبْ أعيادُها

وتَهدَّلتْ أعوادُ فاكهةٍ ولم تَسرِ الحلاوةُ في

عروق ثمارها

روح الخصوبة لم تزلْ في الطين فجراً غائما ،

في الصخر نهرا نائما ،

بجوانب الوادي نشيداً هائما ،

بحلاوة المجهول عيدا قداما

ملئتْ يداهُ من الذبائح والأضاحي والدِّما

ليخط بضعةَ أسطر حُبْلى عن امرأة تعيشُ عذابنا
ركعتْ تصلي الفجرَ . . فانطفأتْ كليماتُ الصلاة ،
وتذوقتْ ألمَ الذهول على الشفاه . .
سكبتْ أغانيها مراهقةً فلم يسمع لها الليلُ الطويل
وهَبَتْ لصوصَ الخمر سُكْرَ عصيرها
وهبتْ لصوص الخصب سُمْرةَ مائها
نَفَضَ الظلامُ على مفاتنها أكف الجائعين
نفضَ الحفاةُ على أرائكها رمالَ الغزو جيلاً بعد جيلْ
والنهدُ والشمعُ المخضَّبُ والرخام
والعرضُ عرَّته الأسنَّةُ والسيوفْ
جاءَ العلوجُ وفَضَّحوا الشمعَ المخضبَ في الطريق
تركوا لها جيلا من النسل الهجين
ضاعتْ فحولتُه ، وزيَّفَ وجْهَه الثلجُ الدفين
وتمزقتْ أسماؤه تحت الغزاة العابرين من القرون .

روحُ الخصوبة لم تزلْ في الطين فجراً غائما
في الصخر نهراً نائما
بجوانب الوادى نشيداً هائما
بحلاوة المجهول عيداً قادما
حملَ الصحائفَ والدواةَ لكي يخطَّ ملاحما
عن يقظة النسل الهجين إذا تخبط في الدما
ليلون الوجهَ المزَّيفَ بالأصالة واللهيب
ليعيشَ مأساة الملوحة في التراب
ومرارةَ الجدب المذوَّب في الثمار
وروائحَ الموت المعلَّق في الأفق
وليسترَ الأمَّ الهتيكةَ في الطرق
ويعيدَ للعرض السليب إزارَه،
ويعيدَ أيام العطاءْ
بحلاوة المجهول عيداً قادما
يهبُ التراب عبيرَه الخلاق والنبعَ العميق النائما

ويرددُ الوادي النشيدَ الهائما
ألفاظُه الحمراءُ تحكي قصةَ النسل الهجين
لما تطهر وجهه تحت السنابك والغزاة العابرين
لما رأى معناهُ في صمت الضحايا الطيبين
شهداؤه ماتوا، وفي أعماقهم ضحك سجين
وهواجسٌ خرساءُ تهتف:

من سيجني القمح من صدر الحقول!
كنا رويناه الدمَ الصافي ومتْنا جائعين.
وسواد أعينهم نداءاتٌ خفيات الرنين:

«انزلْ على الجرح المخضَّب يا ندى
رطِّبْ مراقدَنا الأليمةَ يا ندى
وادْعُ الصخورَ لترحم العظم المهشَّمَ يا ندى
واتركْ بنا رمقًا هزيلاً يا ردى
لنعود في أحفادنا نغمًا وعيدًا قادما
فنذوق طعم القمح في أفواههم

ونحس أن دمًا سفحناهُ يدبُّ بصدرهم

عزْمًا، وأفراحًا، وأعيادًا رقيقات النغم . .

يا ليلُ . . فلتدفنْ بقايانا إذا شبع الصغار

سنعودُ عامًا بعد عامٍ نأكلُ القمحَ

بأفواه الصغارْ

يا كَرْمُ . . فلتسْكُبْ بُحصْرُمِكَ الحلاوة في العصير

سنعودُ في أحفادنا نجنيك . . إن طلع النهار . . »

روح الخصوبة فارسٌ هدم الجدار

لتمر منه الريحُ حاملةً رمالَ الغزو من صدر الطريق

وتعودَ حاملةَ عبير النهر من دار لدار

وتقول للوادي الذي فتح العيون على الشروق :

عاد الكبارُ الميتون

هيا أعدوا المائدة . .

١٩٦٠

من ذاكرة الأرض:

محمد عبيد

شهيدُ الثورة العُرابية وبطلُها الفذُّ
وشرارتُها التي أضاءتْ وانطفأتْ لحظة الهزيمة
لم يكن له أبناء، وليس له قبر ولا نُصُبُ ذكرى
من كفر الزيات

* * *

صـــوت مـــا

بوابةُ الذكرى، وثقبٌ في الجدارْ
تنسلُّ منه نُسَيْمةٌ وشعاعُ نور
وكتابُ حزنٍ سُطِّرَتْ آياتُه فوق الصدور
مدنًا مخرَّبةً وأبطالاً قلوبُهمو بريح الموت مازالت تدور،
موالَ ثأرٍ مزقتْ أصداؤه صمتَ الحقولْ
نبشتْ قبورَ الطمى . . فارتجفَ الفضاء
وتجاوبتْ في الليل حمحمةُ الخيول
ومآذنُ الجميز أذَّنَ فوقها جوعُ البشر
ومشانقُ الصَّفْصاف أرخَتْ حبلَها فوق الجسور
صبتْ نواعيرُ القرى لهبًا . . وسالتْ من حوافيها الدماء

حتى استحمَّ الأفقُ واغتسلَ البشر
حتى اشْرَأبَّتْ من خرائب دورِنا أيدي الجياع
وتسلقت صمتَ الجدارْ
نظرتْ وراء الأفق أحصنةً توهَّجَ في حوافرها الشرار
ومآذنَ الجميز أذَّن فوقها جوعُ الرياح
وحكايةَ السوق التي ملأتْ بحارَ الشمس من رمم
العبيد
واستضحك الطميُ المعذَّبُ حين فُجِّرت القبور
واستضْحكتُ رِمَمٌ، وغنتْ في حناياها النذور
وتحركتْ أيدي الخرائب والشوارعُ والحقولْ
زحفتْ . . بأيديها قميصٌ فوقه بقع الدماء
زحفتْ . . وجوهًا لَوَّحَتْها الشمسُ لونَّها الترابْ
بعيونها كُتِبَتْ صحائفُ من عذاب
حُفِرَتْ بإزميلٍ من اللهب المذبب في الصدور
زحفَ الجياعُ وهبَّ إعصارٌ حبيسٌ في الشجر

والشطُّ هروَلَ والسنابكُ والبشر
لهبًا وصوتا كان محبوسًا بقلب الطمي من عهد سحيق
قمحًا تَشَهّى في ليالي الحقل ساعات الحريق،
طينًا أضاءت في ملامحه ليالي الإنتظار . .

* * *

الليلُ وحشٌ رابضٌ فوق الصخور
واثنان من جند القرى يتحاوران
يتحسَّسان خلال همسهما وجوهَ الغائبين،
والأهلَ والدورَ البعيدةَ والقلق
وحكايةَ الوجع الذي نَهَبَ الحقولْ
والناسَ والزمنَ البخيلْ
وحكايةَ السوق التي ملأت بحارَ الشمس من رمم العبيدْ
جاءوا هنا مُرْدًا بأظهُرهمْ عصا النخاس غورٌ من عذاب
صبيانَ مأساة، وصُفرًا جائعين
فاستقبلوا بينَ القصور الشُّمِّ أيامَ الشاب

فرسانَ واد ميت

أطفاله في الطينِ من عهد بعيد

جاءوا هنا مُرْدًا . . سلاسلُهم تئنُّ

فأصبحوا فرسانَ وادينا

وصاروا غالبين

القمحُ والإنسانُ من عُبْدانهم والطميُ،

ألَّهَ عهدَهم جوعُ السنين . .

* * *

ريحُ الردى دارتْ مُعَبَّأةَ الإزار

بنذالة الإنسان وهو يبيع إنسانًا بِصَلْصَلة النضار

والليلُ يشرب من بقايا الأعينِ الصماء وسوسة النهار

والرملُ يشرب آهةً نطقتْ بغمغمة الحقول

والرملُ يقهَقَهُ: آه يا جند القرى

والليلُ يصرخُ: آه يا نبت الحقول

أزوادهم من غمغمات الطمي أبْلاها الردى

لا قوه زحفًا، لم يُشَتِّتْ شملَهم في الليل تلويحُ الفرار
واستنفرتْهم أوجهٌ في الريح،
جميزٌ ودارْ
كانوا وكان الموتُ والرملُ الجريحْ
أقسى من الموتِ ارتعاشُ الموت في الشِّلوِ الذبيح

شيئًا فشيئًا يسكتُ اللُّجِّيُّ والدنيا تغيب
شيئا فشيئا يسبح العالم في بحر الضباب
يمتدُّ من مجهوله الصامت حقلٌ وطريق،
بستانُ جميزٍ، ودورٌ شادَهَا الموتُ الرقيق
للنازحين إليه من جند القرى..

الليلُ طَنَّبَ خيمةً ورمى إزارْ
فوق الصَّياصي الهاويات.. ولا قرار
لا شيء.. غير مقابر الأحلام، والصمت الممدَّد،
والخرابَ

ولهاث أصداء تكسَّر سرُّها فوق الشِّعاب
تنسلُّ، تسترقُ الخطى، وتدق أبواب السكون
تلجُ الخرائبَ والديارَ المطْرِقَة
فتفجِّر الحلمَ المدمَّى في دموع النائمين
رؤيا قلوب في الدما والموت مازالتْ تدور
مدنًا مخربةً وأطلالاً تواري جرحَها
تبكي وتدفن قصة الجبروت في قبر الفضاء
ليست عليه شواهد غير اصفرار الموت في وجه البشر
ورواية الغضب المؤرِّق في الصدور
ومآذنِ الجميز يسقط تحتها فج الثّمر . .

صوت امرأة

عَرَقُ الرجولة لم يزلْ في الثوب ، أصداءٌ عميقاتُ الرنين
مازلْنَ في صمت الغرفْ
وتهدُّجُ النبرات في الأركان ، غمغةُ المساء
تطوي ضجيج الصبح . . تترك عالم الأشياء يحكي
ما يريد
تتحدث الجدرانُ ، تنطلق الستائر بالغناء
تحكي الأرائك والكراسي والتحفْ
قصصًا عصارةُ عمرنا فيها . . فتصحو الذكريات
وتدور بي ، وتدور . . حتى تستقرَّ على طريق المستحيل
أيامُنا ورقٌ يموت على طريق المستحيل

بالأمس جاءَ . . ففرَّ من قلبي الألم .

والحزنُ طار إلى الفضاء

قولي أيا جدران . . كيف نسيتُ - لما جاءَ - وجه

المستحيل

قولي أيا جدرانُ . . كيف أتى المساء

وتراقص الضوءُ المضَبَّبُ فوق أكتاف الشجر

وتشعبتْ طرق الكلام وطَنَّ في الكون ابتهالْ :

«اللهُ يمنحنا ولو طفلاً يعلمنا الضحك»

فتعود في الضوء المضبَّبِ صورةُ الوجه الغريب

فكأنَّ طفلاً بيننا

وكأن صوتًا في دمي يبكي لأن الطفلَ مزمومُ الشفاه

وكأن صوتَ الكون يغسلُ جرْسه قبل الصلاة

ويقول مسحورا لنا :

«الله يضحك حين يبتسم الصغار»

* * *

اللفظةُ الخضراءُ مازالتْ ترنُّ بلا انقطاع،
أنفاسُه المتردِّداتُ، ودفءُ ضمّاتِ الوداع
وحسيسُ أصداء تنادتْ باللقاء
أرهفْتُ سمعي..
ربما صَهَلَ الجوادُ مع الغروب
أو ربما سبقتْه رنّاتٌ من الضحك الطروب
أو ربما يأتي إذا الليل انتصفْ..

* * *

صوت ما

خفقاتُ أيدي النخل والشجر الحزين
والريحُ فيها غمغماتٌ غامضاتْ
سمعوا بها صوتا تبلِّلُه الدموع
نادى حزينًا :

أيها الأحبابُ قد آنَ الرحيلْ

فإلى اللقاءِ
إلى اللقاءَ
إلى اللقاءْ

* * *

من ليلتين رأيتُه،

وتوهجتْ عيناه في قلب الظلامْ

ولمحتُ في شفتيه رعشةَ الابتسام

وأزاحَ معطفَه وقالَ:

أنا هنا من ذلك اليوم البعيد

مازلتُ أمشي في المساء

فوق النخيل وفوق أطراف الشجر

أمشي هنا..

أرْعى السواقي والحقول

مازلتُ حيا لم أمتْ.. جرحي يسيلْ

عامًا فعامًا لم يزل ثأري ضرامًا في الرماد

رَوَّيْتُ سيفي بالدم القاني وثأري لا يموتْ

حاربتُهم سبعين عامًا..

آه يا ذكرى الزمان

سيفي تؤرِّقُه الليالي الماضيات

فأعود أمشي في المساء

فوق النخيل، على ذؤابات الشجر

وأطوف بالوادي . .

رفيقي . . عِمْ مساء . .

١٩٦١

* * *

كتاب الغزل

١٩٦٢

الغـزل الأول

صبيٌّ لم يزل يحبو على أعتاب دنياهُ
وفي جنبيه شيءٌ خافتُ الإيماء ناداه
بصوت ناعم الترجيع أغواه
لينسى الجوع، كي يتسلق الأشجار
ويجمع من حنايا النهر بعضَ محار
ويرحل خلف نبت طيب العَرْفِ
ويجمع باقة برية الأزهار
ويقضي الليل مفتونًا يرتل آيةً محمومةَ الألفاظ
ويحلم أنه في الليل والأسرار يحتطبُ

فينسى الليلَ . . حين تكَشَّفُ الأسرارُ ينتحبُ

. . . .

وددتُ لو أنني أحكي . . ولكني نسيتُ نهاية القصة .

الغزل الثاني

دخلتُ الحيَّ أبحثُ عن خفاياه الخفياتِ
وأكتم في شغاف القلب إيمائي وآهاتي
أحدِّقُ في حنايا الدورِ . . أشهق: آه يا غوثي
طلبتُ الزاد لكني وجدت الخبزَ مرّاً قاتلَ الطعمِ
طلبت الخمرَ فاشتعلتْ حمياها على الكرْمِ
وحيث نظرتُ لم أشهد سوى ألمي
خفيٍّ الآه والنغمِ
يوسوس لي، ويبعث دمعةً حرّى،
يذوّب طعمها بفمي

فيهدأ ثائرٌ في الصدر . . لا عطشٌ ولا جوعُ
وألمح وجهكِ المسحورَ منقوشًا على قلبي
وأسمع صوتَكِ الكونيَّ في الأعماق يهتف بي :
غدا سنسير منفردين . .

الغزل الثالث

رأيتُ النهر ينفخ روحه السمراءَ في الوادي

يُقبِّلُ عُرْيَه قُبَلاً من الطين

وتترك رجلهُ أثرًا من اللين

بوجه الأرض . . يملؤه اخضرارًا ناعمَ الزَّغَبِ

فتملأ كأسَها بالطمي ، يسكر قلبُها الصاديَ

وتنسى حين كان النهر طفلاً ضامر العودِ

روافدَ هشةَ الشطين لم تحمل بها خصبا

وتذكر حينما التحمت وصارتْ ذلك الربا

يسير فينبت النوّارُ من قدميه في الوادي

وتنبت في سواد عيونه الأشجارُ والحنطة

ونحن. . أنا وأنتِ هنا كطيرين

يطير كلاهما لكن بأفقين

أقول: متى. . بأي غد نصير اثنين في واحد!!

* * *

الغزل الرابع

ماذا أدار الحزن في أعماقنا
ليعيد ذكرى ليلة مرت بنا
خضْنا بها ظلمات نفسيْنا، رأينا جوعنا
نهراً تجمَّدَ في الخفَايا التائهات!!

هل تذكرين حكاية البركان حين تفجرت صبواتُنا
حتى ارتمينا في جليد النهر عريانين..
فابتسمتْ لنا
ضحكت لنا في النهر أعماقُ الجنون
وتوهَّجَتْ فينا الخفايا الجائعاتْ

وتَقَلَّبَتْ أحشاءُ ماضينا وذاب الثلج وانطلق السجين
وتكسرتْ أقفالُ صدرينا وصرنا جمرتين
وتهدمتْ أسوارُ نفسينا وأطلقنا وحوشًا
في الضمير مقيدة
عدنا وحوشًا في المغاور والكهوف
وتكشَّفَ المنسيُّ من غاباتنا
وطبولُنا دَقَّتْ فعلقنا السراويلَ القديمةَ بالشجر !!

ماذا أدار الحزن في أعماقنا
ليعيد ذكرى ليلة مرتْ بنا
خضنا بها أحراشَ نفسينا وغاباتِ الضمير
وحشين عريانين يلهث فيهما وهج ونار !!

١٩٦٢

الجوع والقمر

• الشمس التي لا تشرق •

«شظايا»

(١)

صمتًا يا أبناءَ الجوعْ
فالليلُ القاسي مغروسٌ في حضن الأرض
والظلمة تنفخ في الكون المقطوع
فتمر الريح من الثقب رجالاً صفرًا،
ونساءً يأكلن الأطفال.

صمتا.. فالمرأةُ خلف الشباك الأسود
هَزّتْ ردفيْها، ألقتْ ثدييْها،
ألقتْ تحت الشباك المنديل
وانسلَّ عبيرٌ مسمومٌ تحت الليل
وتلوّى بين الأفخاذ

وارتدَّ ليسألكم:

هل أحمل في قلبي العاصفة أم الصفْوَ أم الموت!

صمتا.. أو قولوا: ها.. يا

حتى يبتعد الأطفال..

(٢)

حينما تصطدم الدمعةُ بالضحْكة في أفق النهار

يملأ الجوَّ عبيرُ الخبز، تَفْتَرُّ بقلب الفرن نار..

(٣)

جوفها الطينيُّ بالجوع احترق

أخرجتْ ألْسنةَ الجوع إلى الدنيا طرقِ
تسأل الزراع قمحًا وعرق.

تشرب القيظَ نهاراً فنهارا
روحُها تلعق شيئا يتوارى
حينما ترتعش الأدْرُبُ في الليل.. تعود
تدخل الدورَ بلا قمح وماء
تسهر الليل لكي تغسلَ آثارَ النهار
بين عينيْ طفلة لم تشهد النورَ ومازالتْ
جنينًا بين أرحام الخيال..

(٤)

يأيها الحافي الصغير

فيِ وجنتيْك تَغَرَّبَتْ روحُ الرضاع
والدمع في عينيك إنسانٌ يجوع .

يأيها الطفل الوديع
اجلس على ملْقى الحواكير العَجاف
وانسجْ لها حلم النهار . .

(٥)

سحائبُنا رفرفتْ في السماء
نديفًا بلا قطرة من مطر
فلا احمرَّ بين الصحارى نَهَرْ
ولا وسْوسَتْ في صدرور الحقول
سنابلُ قمحٍ . . فجاء البشر

بأحشائهم خنجرٌ مستقر

تنادَوْا من الجوع : يا أرضنا

سيأكل أحياؤنا من يموت

سنأكل يا أرضُ أحبابنا . .

(٦)

هنا زورق قلبتْه الرياح

دفنتُ روايتَه في دمي

وأغرقْتُها في ضجيج الصباح

وضيَّعْتُ آثارَها

ونسيتُ مذاقَ الدموع وصوتَ الجراح .

وبالأمس كان اصفرارُ الوجوه

ومقبرةٌ للصِّبا المفعمِ

وصبَّارةٌ تشرب الصَّهْدَ فوق

صغيرٍ ثوى.. آهِ.. لم يُفْطَمِ

وثاكلةٌ مزَّقَتْها الظهيرةُ

تبكي الثرى، خضرةَ البرعمِ

فذكَّرني صوتُها المستجيرُ

بأمسٍ ثوتْ نارُه في دمي

وفي ضوئه الهمجيِّ رأيتُ أبي

يتحطَّم فوق الطريق

وأمي التي أكلتْ ثديها

ضيعتْها رياحُ الظلام العميق

وأختي التي جرفتْها الرمالُ

فكانت كتمثال شمعٍ غريق

هَوَوْا.. صرخاتٍ مضيَّعةً

وطواهم من الرعبِ قاسٍ سحيق..

(٧)

يومٌ قصير

ولّى، ولم يتركْ لنا خبزاً ولا شعراً ولا تيارَ ريح

ولّى ولم يترك سوى الساحات ملأى بالزهور الذابلة

والأرضُ صدرٌ ناهدٌ صلبٌ جريح .

هذا أنا . . يأيها العيدُ المخرَّبُ . . يا ضريح

موتاي قد فرّوا ،

وقد ضاقتْ بما فيها القبور . .

(٨)

أنفاسكُ السوداء يا ليلَ الخليجْ

دارتْ لتحمل أمسنا قبرًا غريقًا فى الثلوج

حلمًا تكفِّنه بقايا من مطر

صوتًا ينادي بالسفر

صيفًا بلا قمح ولا قطن،

ونهرًا ليس يروي ماؤه قلبَ البشر .

الجوع في كفَّيْكَ يا ليلُ خيوطٌ

نحن في نوْلك يا ليلُ نسيج

أنوالُك السوداءُ في صيف بهيج

ربما تنسج شمسًا وقمر

في الصيف قد تمشي سلالٌ بالثمر

لو أن ماجئْنا به زُلفى من الدمع انحدرْ
زيتًا ونارًا أحرقتْ صمتَ المروج .

المرأةُ السمراءُ كانت هاهنا
في موسم الجوع المخيف
عَرَّتْ لنا الفخذيْن . . بينهما رغيف
دارتْ حواليْها عراجين السغب
مدتْ لنا بعض اللُّقَيمات العجاف
فاهتزت الأيدي . .
أكلنا لقمةً . .
لم ندر أن السمَّ في الأيدي سرح
لم ندر أن الخبزَ مسمومٌ . .
فياليلَ الخليج
أنوالُك السوداءُ في صيف بهيجٍ
ربما تنسج شمسًا وقمر . .

(٩)

يعذّبني أنني لست مثل الرجال
وأنك لستِ امرأة
يعذبنا أننا طينةٌ في الفصول الموات .

سنسكت خوفَ انفجارِ الزوابع من كل حرف
وننظر جارتنا في الصباح
تشد الثياب عن الصدر في كل يوم
تعرِّيه للشمس . . تُلقِمُها ثديَها . .

(١٠)

الليل عريانٌ تُغَرْغرُ في أصابعه المياه
تتحدر القطراتُ من راحاته بين الشقوق
تمتدُّ أيد، ترتخي الأجفان،
تلعب رغبةٌ حرّى بأعماق القلوب
تتهدج الأنفاسُ، يرتجفُ العصيرُ بقلب أعواد الشجر.
الليل عريان ونامتْ أصبعُ الأطفال في دفء الشفاه
وسمعتُ غرغرةَ الجداول غمغمتْ بين الشجر
فخرجتُ عريانَ الهواجس . . رعشةُ الحمى معي
أفنى وأرجع للحياة . .

ألقى علينا الليلُ فَضْلَ عباءة سوداء

فارتعش الكلام

فَلَتاتُ ما قلناه فَضَّحها وعرّاها الظلام

-: ماذا رأيت، حبيبتي، بعد الرحيل إلى الشمال؟

-: ثلجًا تكوَّمَ وانحنى مثل الجبال

-: وحكاية السنتين.. هل خطرت بقلبك في الجبال؟

هل أدفأتْك، رأيت وجهي الأسمرَ

المعروقَ يهتفُ بالألم

وسمعتِ قلبي إذ تَغَرَّبَ في الرياح؟

-: الثلج أبيض، والشتاءُ مخيِّمٌ،

والنومُ فاكهةٌ تجيء بلا أوان.

فعرفت أني قد دفنت هناك في ثلج الشمال.

(١١)

تنفَّست الغابةُ النائمة

وألقتْ مناماتها للقمر

وغمغم فيها العبيرُ الغريبُ

وطارَحَه البوحَ وَقْعُ المطر

وأشباحُها رقصتْ في العراء،

تثاءب في جانبيْها الخدر.

أفاقت من النوم أطيارُها

تروِّعها كلمات الشجر

فطارت بألوانها الغامضات

وغابت عن الكون، غاب القمر.

عبيرك يا غابةَ الليل فاحَ

وأضْرَمَ في القلب إحساسه

وحيَّرني وجهُك المستريبُ،

عشقْتُ خفاهُ وإيناسَه.

تَنَفَّسْت يا غابةَ الليل في القلبِ،

أحرق عطرُك أنفاسَه

وغمغمةُ الريح، صوتُ الرحيل

يدق ليَ الكون أجراسَه

فياغابة الليل.. يا أمَّنا

تحرَّقْتُ عمري على المنحدر

وغمغمةُ الريح، صوتُ الرحيل

ينادي بنا: الفرارَ.. الفرارْ

(١٢)

حطّت الرؤيا . . فكانت خيمةً من غير بابِ
رقص الكونُ على السلم من غير ثياب
قلتُ: يا قافلةَ الليل . . خذي قلبي معك
أعشق السيرَ الطويل
وانتظارَ الشمسِ في أفْقٍ غريبٍ مستحيل .

حطت الرؤيا . . فلم أشعرْ بأقدام الفصول
وهي تمضي في ذهول
ريحُها تطمس آثارَ الشباب
آه . . ما أحلى الردى والقلبُ في فجر الشباب . .

(١٣)

بيني وبينها طريق

شبّاكُها يلوح من بلّوره إبريق

انخطفتْ روحي له . . مشيتُ في الهجير

شربتُ جرعتين . . فارتعشت

وطرت لحظتين . . فاختنقت

وعدت صامتًا إلى الحياة

أوّاه . . لِمْ نسيتُ أن أموت عندها ! !

(١٤)

وأسند الهلالُ ظهره ومرفقيْه فوق أذرع النخيل
ومالَ . . فاستخمَّت الزروعُ في الحقول
وأسقط الهلالُ قطرةً من العرق
عبيرُها ينفذ في العظام والعروق . .

يداه تلمسان وجه عاشقٍ . . فيفتح العيون
ويهبط الهلال فوق صدره ويبدأ الغناء
فيملأ الفتى الوديعُ حجْرَه ببعض قمح
ويرجع الهلال مثقلَ الخطى بحمْله من الغلال . .

(١٥)

عرفتُكَ . . ما غاب وجهك عني

ولا غيَّرَتْك رياح الفصول

وصوتُك مازال خلفي يرن ، يطارد روحي

بدربٍ طويل

فأهرب من وجهك المتحجِّرِ ، من صوتك البربريِّ . . إليك

وتأخذني راحتاك . . وعينك تومض بالمستحيل

فأهرب . .

قد أتخيَّل بابًا . .

وأسقط - كالثلج - بين يديْك . .

(١٦)

رأيتكَ في مهبّ النور والظلمات

صغيراً ضاحكَ النظرات

تغني الحقلَ والصفصافَ والطرقات

تركتُ الدرب . . لكن صوتك الصافي يلاحقني

حملتُ غناءَكَ الخلاب في الأعماق يسقيني ويطعمني

كأنْ لمْ أترك القرية

كأن لم أغترب عشرا من السنوات . .

ومن يومين . . أطرق وجهك المنقوشُ في قلبي

وصوتُك صار حشرجةً، وغامتْ عينك السوداء

تعرَّى كل شيءٍ ههنا . . أحسستُ بالغربة .

وجئت إليك من منفاي . .

أسأل دربَنا عن صوت شاديهِ

أسائل أرضَنا عن لفظةٍ من قلبها كانت تغنيها

فغمغم كل شيء ههنا : قد مات

وأدرجَ في حُنوطِ الأرض من عَشرٍ من السنوات

وكاد الحقلُ والصفصافُ ينساه

فدعْ في الأرض ذكراه .

فَمَنْ أصداؤُه كانت تلاحقني ؟ !

(١٧)

لو جئتَني والكونُ في سكناته يلدُ

والشمس من أرحامه في الطمثِ ترتعد ! !

لو جئتَ يا مجهولُ بين بشائر الطيرِ
لوكان سرُّ الخلق والتكوينِ في صدري
لو أسمعتْني الريحُ سفرَ البرِّ والبحرِ
لاهتزَّ هذا العالمُ المخبولُ في فكرة
واستنطق الإنسانُ قلبَ مصيرِه شعَره .

لو جئتَ يا مجهول عبر مواسم السخرة
لو جئتني والشمس تولد من دم الدربِ ! !

لكنني أخفيك يا مجهولُ في قلبي . .

(١٨)

حينما تعبر دربي يا قمر

أخضرَ الوجه، عميقَ الصوت، مِرخيٌّ الجفون
تعقد الكفَّ على الصدر، تواري حزنك الصافي الدفين
أتركُ الرؤيا وقلبي شعلةٌ بين الحنايا مطفأة
ضوؤك المرهَقُ لا يشعل في القلب رمادَ الإنتظار.

حينما تعبر دربي يا قمر
أحمل الظلمة في صدري سراج.

حينما تشرق في جوف سموات أخَر
حينما ينْهَدِلُ الشعر طريقًا للسفر
أترك الدرب، أناديك: انتظر
ريثما أترك في الدرب السراج..

(١٩)

تمهَّلْ . . تمهل

على مزلق الضوء وانظر لنا يا قمر

ولا تغرق الآن،

واصلُبْ خطاك القصار

وكَمِّمْ فمَ الجرح في صدرك اللين المستطار

وغطِّ بأثوابك النهدَ، واصعدْ من البحر،

وانظرْ قتيلَ القفار

قتيلَ الهزيع الأخير

من الليل . . مازال وقتٌ ويأتي الهزيع الأخير

فلا تغرق الآن . .

وجهي أنا معْبرٌ للخيول

وصدري طريقٌ،

وثورٌ سيدْمي بقرنيه قلبي

وإن جَرَّني ظلفُه ساعةً في الوحول

سيمضي إذا ما تخلَّعَ مني الكيان

ويتركني مُزْقَةً في رياح الردى

ترفُّ قليلاً وتسقط في هوة الإحتضار

فلا تغرق الآن، واصعدْ من البحر حتى يحين الرحيل

وأسندْ إلى صدرك الرخْو رأسي

وكمم جراحي بأثوابك البيض،

أغلق بكفيك عيني

وضَمِّدْ بنهديك جرحي. . فعيناك خبزي الأخير

ونحن القتيلان في القفر بعد الهزيع الأخير. .

(٢٠)

روحي التى شربتْ عصارتَها ليالي الإنتظار

مازلتُ آكل من بقاياها وأشرب من سمومك يا نهار

مازلتُ أمضغ فلذةً من لحم قلبي المحترق .

موتايَ مجهولون . . قد صَوَّرْتُهم من طينتي

ياويلتي مما قد اصطنعتْ يداي

صَوَّرْتُهم في الليل ،

جاءوا في الضحى ،

ماتوا بمنتصف النهار . .

(٢١)

ازحفْ قليلاً يا جبل

ازحف قليلا ياجبل

اطوِ القرى والنهرَ. . فالريفُ الثمل

لم يعتصره الموتُ. . ما طافتّ به ريحُ الحياة. .

لو جاءنا صيفٌ ودَرَّتْ ناقةُ الأمطار واخضرَّتْ مروج

لو جاء وانحدرتْ مياه السيل بي واستيقظ الريفُ الثمل

لاستيقظتْ روحي مع الطمي الجديد

ومررتُ من بوابة الشعر - الجليد

وجعلتُ رعدَ العالم السفليٍّ حبراً في الدواة. .

(٢٢)

تَمَهَّلْ على الجسرِ ،

مازال وقتٌ وينتصفُ الليلُ فوق الجبال

ويُخرس في الريف صوتُ السواقي

وننسى شواديفَنا المطرقاتِ على النهرِ

ننسى مجاعاتنا والضفاف .

على جبل الليل من طائر الأمس لما تزل حفنةٌ من رماد

ومازال وقتٌ وتشتعلُ النارُ فيها

ويولد من رِمَّةِ الأمس فرخٌ جديد .

تمهل على الجسر . .

أكواخُنا لم تزل ، والرجال

ظهوراً من الرعب محنيَّةً . .

يحلمون بشمسٍ بلا مشرقٍ ، بفصولِ المحال .

تمهل على الجسر . .

أطلالُنا لم تزل تتداعى

بأبوابها بقعةٌ من دماء بنيها تغني انتظارا

بأحجارها حُلُمٌ غامضٌ يتنفس خزيًا وعارا

فدعْها لأوهامها واطِّرِحْ عنك إثْمَ التجارة

ومزق أغاريدكَ المستكينةَ بين عبير التوابل

تلصَّصْ على قرية الجن واهبطْ قرارَ الجحيم

لتغسلك النارُ ،

واسرقْ بقلبكَ جذوةَ نارٍ ،

فمازال فوق الجبال

من الطائر العبقريِّ بقايا رماد

فأضْرِمْ بها النارَ . .

وارقص أيا ضوءُ في عُرُسِ الأرض
حين تطير الصواعقُ بين الرماد . .

(٢٣)

هلالٌ تعشّقْتُه في ليالي الصبا
صار ملْحًا بطعم الرغيف
وطينُ التماثيل ما عاد إلا حراشيفَ جوعٍ على الصدرِ
صوتٌ مخيف
يطنُّ طنينَ الليالي الحزينة
ويُنْشِبُ أظفاره ويعرّي – إذا انتصف الليلُ – وجهَ المدينة .

بعيدٌ أنا ياليالي المدينة
بعيد أنا يا نوافيرَ صيفٍ من الشِّعر . . إني بعيد

دموعي قناديلُك البيضُ يا جامعة .

أنا الآن في قبضة الثلج . .

فوق السرير

مرايا ، وصوتٌ بأعماق نفسي يزيح الستأر

فينأى عن الوجه ضوءُ النهار

ويلمع وجه الدجى في المرايا :

طريقًا حدائقُه مطفآت

دواوينَ أبياتُها ذابلات

نواقيسَ أصواتُها الباكيات

تؤبِّن وجهي الذي ابتاعه الرعبُ والمسغبة

بقرصٍ من الخبز .

تبدو الحدائق في طرقات المدينة

رصيفًا من الثلج يخلو من السائرين

قناديلُكِ البيض تخبو على دَرَجِ الموت يا جامعة.

(٢٤)

بقايا الردى في عروق الشجر
وبين أصابعها ثمرٌ يُعْتَصر
فأطرقتُ أحلم حلمَ الثمر
وأشرب في حانة الأرض قنينةَ الإحتضار
وأحمل في شفتيَّ مرارةَ شمس النهار.

سأطفىء عينيك يا شمسُ.. فالليل صافٍ رحيم
به يختفي الموت وهو يمر خلال الفضاء بنا
فنشعر أن القبور مزارٌ قريب
ورحلةُ يوم قصير..

(٢٥)

يدور العالم الصخّاب لا يقفُ

ونحن – معاشر الشعراء – نرتجف

على أعتابنا جيف

حناجرُها تفتت نطفةَ الأشياء.

ويا شعراء

تغنَّوْا غنوةً لهيبةَ الإيقاع تشقينا

وتجعل نومنا رعبًا يدمدم في حنايانا

ودقوا الباب كي لا تحمل النسوة

فإن رجالهن صغار

فحولتهم بأكواب المراهم والتوابل،

والشواربُ آيةُ البَرَصِ الرمادية . .

(٢٦)

شفتاك داميتان يا شمسي الحزينة
عيناك مدْخنتان في سقف المدينة
موّالُكِ القرويُّ عفريتان جباران يقتلعان
من قلبي السكينة
وبنهدكِ الناريِّ تُرْغي الخمرةُ السوداءُ،
تنبجس الهواجس في هدوء .

مدي يديكِ إليَّ يا شمس الشجر
ـدي يديك إلى رضيع العنفوان
ـذا أنا . . لم أحتملْ صمتي ولم أقدر على بدء الحديث

هذا أنا قد عدت من منفاي للمنفى الجديد.

في الصدر مازال الردى الريفيُّ،

في رئتيَّ ملحمةٌ من الشعر الخبيث

هامتْ خلال دمي،

يصلصل في قوافيها هُجَاسُ الرعبِ،

أحرفُها رمادٌ حطَّ في قلبي الصغير

مدي يديك إليَّ يا شمس السموات الأخر.

هذا أنا أهتزّ في بوابة الشعر المميت

فابدأ غناءَ الرعب يا قلبي الصغير

ابدأ غناءَ الرعب.. لا تبدأ.. فإن مدينتي السكرى تنام

أياميَ المقطوعةُ النهدين مازالتْ تولْول في الظلام

تْستَرحمُ الجدرانَ، تستسقي الرؤى،

أوّاه ياضرع الحجر

هذا أنا . . في الليل مطروحٌ،

وشمسي لم تزل ضرعًا غريبًا من حجر

يهتزّ في شباكيَ الكونيِّ، يُلْقي في فمي طعمَ الرماد .

هذا أنا . . في الليل مطروحٌ،

وسقفُ الكون لم ينبتْ نهاراً واحداً،

يأيها السقف الرهيب

أين السموات الأخر

أين السموات الأخر ! !

ابدأ غناءَ الرعب يا قلبي الوحيد

ابدأ غناءَ الرعب والفوضى

وعاقرْ خمرةَ النفي الجديد . .

(٢٧)

في السجن . . لم يشرقْ على قلبي نهار
تدميريَ اليوميُّ لمْ يترك طريقا للفرار
زنزانتي معروشةٌ بالسبع ، لم يُنْصَبْ حواليْها جدار
شباكُها الريح التى لم تغتسلْ في البحر ،
كونٌ يرشح الطين المداريَّ العبير .

أمشي . . أشم الطينَ والعطرَ المميت
أمشي ولا تهتز في صدري عروق
لا أسأل القومَ الصغار
رِفْدًا . . ولا ألقي التحايا في الطريق .

من يستطيع الآن أن يصغي إلى أصداء ما
في الرأس من عنف الحوار
والحارسُ الليليُّ . . هل يبكي معي موتَ الحوار ! !

(٢٨)

وياريحَنا المقمرة
تعالَيْ من الصمت يا بلبلَ الفضة المغتربِ
تعاليْ إلينا خلال الفضاءات ،
صُبي لنا قلبَكِ المنسكب
خذينا – أيا أمَّنا – واغسلينا
بأحواضك الطائرة .

ضعي ساعديْكِ الرقيقين حول المدينة

لكي تُسمعيها صدى قبلة الطمي

والشمس والغيمة الممطرة

تَغَنّيْ بأبوابها العنكبوتية الصمت علَّ الرجال

يفيقون من رعبهم في مغازي الأسرة

ودقي بشبّاكها خنجرَ الشعر علَّ النساءَ

الخبيثات يعصرن أثداءهن الرهيبة.

ويا بلبلَ الريح يا طائرَ الفضة البربرية

تَلَفَّتْ حواليك.. فالأرضُ أحبولةٌ واغتيال

تلفتْ حواليك.. فالأرض قد أثمرت في سرير الطغاة

سفاحًا.. فجاءت بنسل بلا أنفس أو قلوب

فرفرف عليها لكي تعصر الثديَ من دوده والعصير المميت

وحَوِّمْ عليها لكي تدفن العارَ في صدرها الرحب،

وارقصْ لها قبل عرس الزمان الجديد

تحدثْ إليها عن الشعر والعشب،

واصعدْ بها في غمام البراءة

وخذْها لتبكي خلال القرى بعد أن ينتهي ما بها من ذُرَة

ويا بلبل الريح والطمي.. ضع خنجر الشعر تحت المدينة

وأغمدْه في روحها المقفرة.

حزين أنا.. فالمرارات نَزَّتْ دمًا في ضلوعي

وعذرًا أيا قريتي الصابرة

فما أتْفَه القولَ، ما أتفه القائلين الصغار

وعذرا أيا قريتي.. واغفري ما بنا من صغار.

ويا قريتي.. يا طيورا مسائيةً جائعة

خذيني لصفصافة الموت.. لكن أعيدي دمي

نخلةً أو طيورا مسائيةً أو هواء

خذيني بأحضانك السمر جميزةً من غناء

خذيني أيا قريتي وارحميني

ارحميني . .

(٢٩)

(أيها الطفل الذي نامت بعينيه ذؤاباتُ الشجر

واحمرارُ الماء في الصيف وتكويرُ الثمر

أيها الطفل الذي مات وفي راحته قبضةُ بُرّ

وتراب، وعلى جلبابه بقعةُ حبر

قمِم من القبر . . أتى الصيفُ وميلادُ القمر . .)

كنتُ في القبر عظامًا تتعرّى

تشرب الأرض اسودادَ العين،

تلتذُّ شفاهُ الأرض من خمر عروقي

وبصدري طائرٌ يشرب من قلبي رحيقي .

طائري الأخضرُ من عام على قبري يطلُّ
منذ أن هاجر من صدريَ لم يرحمْه ظلُّ
شبعتْ من جسدي الأرضُ وغطّتْ في كراها
وأنا في غفوة الأرض انسللتُ
طائري أسْكنْتُه صدري، وفوق النخل سرتُ
أسمع الأشجارَ يسري ريقُها الحلوُ بأعصاب الثمر
أسمع الأفراخ إذ تَنْقُفُ جوفَ البيض
كي تولد في إطلالة الصبح بشبّاك الشجر
وأرى الدور وأمشي في الحواكير الغريبة . .

«كتب معظم هذه الشظايا

بين عامي ١٩٦٢ - ١٩٦٣»

شرفة المحاصر

حدائق الزقوم

تموجت ضفائر القمر

وسار في حدائق المياه

ومسَّحت براعمَ النبات في سياجها يداه

وقال: عام خير . .

فبللت لسانها الجذورُ،

غمغمت، فقهقهت ملامح القمر

وجاس ضاحكا خلالها يراقص الشجر

وقال: عام خير . .

تهدلت ضفائر القمر

ونام تحت سروة غريبة الثمر
ظلالها كواكب تعانق الأفوال
ثمارها عرائس تطير في الحقول
فيحلم النبات في مناجل البشر
وتحلم الدروب في سنابك الشتاء

تبعثرت ضفائر القمر
وشاب في السماء سالفاه
وحطت الرؤى على ذؤابة الشجر
بسبع سنبلات يلتهمن سبعةً من البشر
ويورق الدم الغريب سبعة من الكتب
فيستحم ثم يقرأ القمر :
«ستصبح المياه في حدائق المياه سروةً
جذورها تغوص في النحور
تساقط الرماد في مواسم الثمر . . »

١٩٦٢

جامعة التوت

يا رحمًا مملحة
وحلْمة مقرَّحة
فلْتكدحي للخبز في البيوت
ولتصعدي السلالم المطوَّحة
ولتهبطي إلى قرارة السكوت
فالشمس في مخازن الظلام كسرةٌ مجنحة
غني لها، وامشي بضوئها المميت

ثدياك لم تملأهما سحابةُ اللبن
عروق صدرك انسكبن في الثياب

وفي دمائك الجزيرةُ اليباب .

دوري على البيوت . . في البيوت مذبحة

واسترسلي في صمتك الرهيب

ففي لفائف الصغار خنجرٌ

يشق قلبك الكئيب

وفي يديك قرحة مقيحة .

الشمس في اصفرارها الأخير

مرثية مجنَّحة

والعالم الصغير

تعويذةٌ مصفَّحة .

التوتُ فوق صفحة المياه

ملون ولامعُ
ومبطئ ومسرعُ
التوت في مملكة الإله
أشجارُه مباحةٌ فلا يُرد جائعُ.

النهر طافح الجروف
وفي المياه جثةٌ بلا كفن
وثوبها ممزق وثديها منفجر يودع السماء
ووجهها مروَّع يبحث عن وطن
ينام فيه صامتا.. بلا عزاء..

١٩٦٢

علواني.. مرثية صديق

(١)

باب الكهف قنديلٌ ضئيل النور
يشد إليه قلب الأرض،
يسكب صوتَه بحديثها المسحور
تزحف نحوه شجرا ووديانا
نسير إليه موجا صاخبا وموانئا زرقا وشطآنا
نسير إليه – إن ضحكت – خلال النور
وتحت عباءة الظلمات إن جاعت ودارت
ريحها موتا وأحزانا.

ويسكب زيتَه وغناءه بحليبها الصافي

يعكِّره، تغَص به حلوق صغارها،

يمشون تحت بيارق العشرين

وتحت بيارق العشرين . . أعبر بحرها للكهف سكرانا

تصلصل في يدي الكاسات بالأحلام واللقمة

فتذهلني عن الخبز الغريب الطعم حين

يغوص في الآلام .

ترجُّ الريحُ صمتَ الكهف، يلمع بارقٌ،

عينان تلتمعان في الظلمة

وتوقظني على عينين ترتعشان . . تبتعدان . . تنطفئان

دخانُهما بيارق عاميَ العشرين .

وشيء من خلال الصمت شد لصدره صدري،

وخاصرني

جدائل شعره شوك يغوص . . يغوص في قلبي

- خلال الصدر - يشرب من دمي،
فتصلصل الأثقالُ في الأقدام
وتوقظني على عينين ترتعشان تبتعدان تنطفئان
دخانهما ملامح عامي السبعين
وتصرعني ملامح عامي السبعين، تصرع في فمي الكلمات..

(٢)

سأطرح معطفي الثلجيَّ في الساحة
وأخرج من طوايا الصدر تفاحة
أقسِّمها على الأطفال يوم العيد
أضمد في طوايا الصدر حبلَ كمنجتي الزرقاء
وأطلق ضحكة جُحويَّةَ الأصداء
أقول:

«إليَّ يا أطفال . . سوف أقص عن جنية حمقا

إلي إلي يا أطفال . . سوف أضاحك الأحجار

والأشجار لو داعبتُ حبل

كمنجتي الزرقاء . . »

فيلتفون، أهتفُ:

«كان في الميدان كرسيٌّ ونافورة

يجيء اثنان كل ظهيرة في الظل . . يترددان،

ينكمشان تحت الماء

صبيٌّ كنت أعرفه وجنِّية

فيسقي الطيرَ في أعماقه،

ويعلُّ خمر شبابه من شعرها المبتلّ،

يفترقان كل مساء

يجوع الطير في أعماقه، يفترُّ، يصبح ليله

شمسا ونافورة.

وذات ظهيرة . . أوآه يا أطفال

وكان الطفل يشرب خمره من شعرها المجدول

فقالت : كيف يحمل صدرُك الأطيار ! !

وشقت صدره فأجاءها البلبل

على منقاره أغنيَّةٌ بدمائه تُعول

يُساقطها على أثوابها ويطير ملهوفًا إلى الظلمات

وكان الطفل مرميا تسيل دماؤه . . أواه يا أطفال !

أريد الآن بعض الماء قبل نهاية القصة

فإني ظامىء . . أواه يا أطفال . . »

فنادى واحد منهم : ولكن أنت يا عماه

يداك الآن تنتفضان . . أنت تمزق الأوتار . .

أتيت أضاحك الأطفال يوم العيد

ولكني نسيت سبيله . .

فرميت فوق الصخر وجه كمنجتي الزرقا

وقلتُ: الآن . . معذرةً . .

سأترك هذه الساحة

سألبس معطفي الثلجيَّ، أترك بين أيديكم

حطام كمنجتي الزرقاء . .

(٣)

يسير الجسر تحت عباءة الظلمات

بين قناطر الأصوات

يسير الماءُ في القرْميد، يهوي قطرةً قطرة

فيجري صوتهُ المجنون يخمش أوجه الجدران

ونحن اثنان تحت قناطر الأصوات يرتعشان

تدوس حوافر الأصوات وجهينا فيرتعدان

ونجمٌ خلفنا ألقى على الجدران ظلينا

أدرْنا وجهنا للنجم . . نادينا

وغنينا ليبدو الخوفُ بين مقاطع الأصوات

فمال الصوت وارتعشت مقاطعه على الأحجار

أدرت الوجه نحو الظل . . لم أشهدْ سوى ظلي

ونحو النجم . . فانسدلت على عيني جدائل شعره الأسود

وسار الصمت تحت ردائه الليليِّ

بين قناطر الأصوات . .

(٤)

قطارٌ مجهد العربات معتلٌّ

ومركبة وراء مراكب في الضوء تنسل

تلوح الأوجه الصماء من بلورها المطفأ

وقلبي ضائع في القيظ مركبةٌ بلا مرفأ
أنادي الراكبين الصمَّ فوق مقاعد الأحزان
لعلَّ الراكب الموعود يسمعني فيفترُّ،
يلوِّح لي، يهز إلي منديلا
فتسقط حولي الأمطار . .

(٥)

حبيبي . . وجهك المنقوشُ في الظلمات يفترُّ
أحس به . . ولستُ أراك
لست أراك
وصوتك راعشُ الإيقاع في قلبي
أحس به ولست أراك
لست أراك
وعطرك سابحٌ طميا ووديانا

أحس به ولست أراك

لست أراك

ورعشة بسمة تهتز في شفتيك

أحس بها ولست أراك

لست أراك

حبيبي . . عد . . ولو طيرا من الشباك

ولو طيفا . . ولكن عد مع الشمس . .

١٩٦٢

مجنون

صريرُ الباب أوْقع من يدي قلبي
وتحت تحيُّر الأصداء – والمسمارُ في الركبة–
صعدت السلم المفروش بالرعب
ودقت ساعةٌ مكتومة بالخوف تسقيني وتطعمني . .

أيمكن أن يموت الآن شيء واحد في القلب
وسنُّ الشوكة السوداء
يسمِّر كوكب البازلت في صدرى
يسمر في دمي الأصداء
وصوت فاجع الترجيع بالأشعار

تخثَّر في دمي والدودُ تحت الجلد يرعاه
أيمكن أن يموت الآن شيء واحد في القلب!!

صهيل الخيل، والأقدام فوق حوائط الشرفة
تشدُّ عليَّ حبلا أسود الكتان
فتعشب أوجه القرميد بالحيّات
ومازالت عروس الشعر بالغرفة
تغطي الصدر والردفين بالأعشاب،
يهرب في جدائل شعرها كوكب..

توترَّ بين فرعيْ سروة ليلية حبل من الكتان
وفوق الحبل ترتعد العصافير المسائية
وتحت الحبل آكل صرختي وأسير في الظلمات
يمزقني رنين الساعة الوحشية الدقات

حوافرُ صوتها اخترقت عظام الرأس ،

تختنق العصافير المسائية

يحط الطائر الليليُّ في قلبي

وموسيقى تدق الرعب في العالم

ويوُغل صوتُها الممقوتُ في الإنسان والأشياء . .

١٩٦٢

الصوت والقمر واللصوص

(١)

بخدّيكِ أعيادُ قلبي
وعيناكِ في أفقه كوكبانِ
يفران في لفْتة الليل، لا يبرحان الضلوع
يطيران بي في سماء الرؤى والأغاني

(وقلبي مريض بأشواقه الخرس والإنتظار
توقّعتُ صوت الخطى في الدجى والنهار
فيصفرُّ وجهي ويحمرُّ عبر الثواني

فأقْبِلْ - أيا قاتلي الطيبَ القلب -
عبر الدروب القديمة
بما تحمل الأرض من خمرة في سواقي الفصول
وأقبل أيا فارسي، خذ من الصدر قيثارة الصوت،
في الصوت خبزُ الجياع..)

(٢)

أرى كل شيء.. ولكنني لا أحب الوضوح
أرى الأفق يلقي بأحشائه فوق أيدي الزروع
وما فجّرته الثواني من الموت يبدو خلال الجروح
فأمشي بعيدا.. وينصبُّ شعر الفضاء
غناءً رهيب القوافي يدير الرءوس
تطوّحتُ في ملتقى البحر بالبحر،
من زهرة الطين فاحت ثمار الجنون

تضرعت للبحر فاسودَّ منقاره،

عدت للأرض فاهتز رمّانُها بالأفاعي

وصليت للأرض فاهتز خشخاشها بالنجوم

ويأيها الوجه.. أهواك.. أخشاك..

أخشى انطفاء الرؤى تحت خشخاش

أيامنا البربرية..

(٣)

تعاليْ إلى رقعة الظل..

من أنتِ يا طفلةً في مهب التشهِّي!!

ونهداك من رغوة الشمس،

ياكوكبًا عينه دمَّعت في انتظار الطلوع

بعينيك يا طفلتي هالة بربريه

وفي شارع الموت تهوي نجوم النحاس

وفي لفتة الرأس للضوء والظل . . تنهَّد أركان قلبي
تقوم القياماتُ في الصدر ،
في طينة القلب نارُ التشهي ورؤيا الرماد
تلصَّصتُ ، أدميت روحي ، ونقَّبت في الأسطح المرمرية
ففي أي ركن من الضجة اللولبية
تضمين قيثارةَ الطمي والإنتظار ! !

(٤)

تسللت عبر المقاهي التي أُخْرِسَتْ
حينما حط ظلي النحيل
فأفرغتُ عيني من النار قبل الضحى ،
وانحنى الظهر ،
أفرغت صدري من الريح قبل الأصيل

هنا . . بعد أن تنقضي ساعةٌ رطبةُ الصوت

لن يستطيع المساء الغريق

نعاسًا ، ولن يستطيع الرجوع

سيمشي تواقيعَ من ظلمة . .

آه لو يهرب الكوكبُ الرَّخوُ ،

لو يرضع الكوكب الطفلُ ثدي الصواري المميت

(هنا كان بدء الحوار العميق .)

ولكن ظهري انحنى في مقاهي النهار

تلصصت حتى أرى أوجه الإصفرار

(وفي السوق ، في كل مقهى عيونٌ ترابيةٌ

تشحذ النصل . . فالليل آت

تواقيعَ ضوء ، وفي كل توقيعة طعنةٌ . . لا فرار .)

سأمضي إلى شرفة الصوت ، أطعن كوكبيَ الطفلَ ،

أرميه في بِركتي الداخلية . .

(٥)

سأرقص في شمس عينيكِ . . تحت السماء القصية
تحسستنِي ذات ليل فأدميتني بالجروح الخفية
(بلحمي تواشيحها السود، في كل جرح غناء.)
وأنفاس نهديك يا طفلتي طوَّفتْ بالعبير
فمن أنتِ يا شمسَ قلبي التي ضيَّعتْها السماء
وأنفاسُ نهديك تمتد في طينتي بالجذور!!

١٩٦٣

مرثية إلى أنور المعداوي

قد جئت إليكم – عبر فصول الأرض –

أتكلَّمُ عشبا، أضحك أقمارًا،

أبكي أمطارًا خضراء

أتنفس طميا، أرقص برقا وغناء

أتطوَّح صيفا علويا

قد جئت إليكم . . أتأرجح فوق الحبل المشدود

من أبعد ساقية في الريف . . إلى

البرج الصخري الصامت في الميدان . .

* * *

الأمُّ – الغولة كانت ترقص في الميدان

نتفتْ ساقيها، عرّتْ فخذيها، صبغت شفتيها

وضفائرَها الليفية

الأم - الغولة كانت تضحك في المذياع

كانت تتلوى فوق المسرح،

تضرخ في ورق الإعلان

الأم الغولة غسلت إبطيها بنبيذ الجوع

أكلت أطفالا سمرا واستلقت فوق سرير حجري

كي تلد رجالا صُفرا منفوخي الأبدان..

* * *

كنا في عصر اللبلاب

نبتهل إلى الجميزة كي تبقى فصلا آخر

أن تهوي في سنوات هزيمتها خضراء

كنا نبتهل إليها كي تبقى حتى تهجرنا الشمس

القاسية السوداء

كنا نبتهل . . فمن يسقينا حين اقتطع الصمتُ

الأسودُ ضِرعَ الأرض!!

* * *

قد جئت إليكم . . أتأرجح في مشنقة اللبلاب

أغتصب اللفظة بعد اللفظة ، أصرخْ :

يا . . يا أرض

كوني قُدَّاسا يُتلى في صلوات الرفض

كوني سكينا تغرس في أضلاع البغض

كوني لفظا مسنونا يفقأ عين الصمت . .

* * *

جفناي امتلآ برماد الشمس

صدري ممتلىء بالكلمات المعشبة المختنقة

عيني بالرؤيا محترقة .

قد جئت إليكم فوق الحبل المشدود

يقتلني أن أتلفَّتَ أو أرتد
فرأيت الأم الغولة تحت الصَّهْد
عرتْ ثدييها للزوار
كشفت عورتها، فاستخذيتُ . . أدرتُ الوجه
فزلَّتْ قدمي
وهويْت على صمت الميدان
تتكسَّر فيِ رأسي أظفار الصخر
يتحشرج في حنجرتي صوتُ الغرين والغيطان .

* * *

افتحْ عينيك الآن على سفر التكوينِ
الصامتِ في حنجرة الأرض
وتحسْس موتَ النطفة في الرحم السفلية
واملأ رئتيك الفارغتين
بعبير الظلمة، واشرب ما ينصبُّ من البئر المنسية

وانتظر الشمس الأولى كي تشتعل جذورُ الطمي . .

* * *

افتح عينيك الآن على أعشاب الأرض

واغسلْ جفنيك بما في الطمي من الأسرار

وتأوه في ساقية الصيف

وغمغمْ في الأمطار . .

١٩٦٥

الجوع والقمر

(١)

هبَّتْ هياكلُهم من الأرض البوار

عظما رماديا، بقايا من كفن

فالجوع مد أصابع النيران حبلا في النحور

والطمي أزَّ كأنه حطب بقلب النارِ،

صوتٌ مرهف دامي الصدى في الكون طنّ

يستنفر الموتى، يشق عن الجماجم سكرة الأرض -

البوار

والصبية المتوحشون تخلعت أظفارهم في

الأرض بحثا عن جذور ميتة
وقفوا قليلا، حدَّقوا في الصمتِ، أعشاهم
صراخ الضوء في عين السماء الباهتة
خطفتهم الرؤيا فناموا في النهار
والريح أفعى تغتلي أحشاؤها جوعا،
فدارت والتوت حول الجسور
فحَّتْ، عَوَتْ، نادت لتوقظ غفوة الموتى:
لقد جاع الصغار
جاع الصغار
جاع الصغار
فانشقَّ في ليل القرى ملح القبور.

هبت هياكلهم من الأرض البوار
وتحلقوا حول القرى

أسوارَ عظْم في بقايا من كفن

جاسوا خلال الدور، ساروا في الحقول الخالية

نادوا.. فرد صدًى أبحٌّ في الظلام

غنوا.. بكوا.. شقّوا الجيوب البالية

(لا شيء يأكله الصغار

فاترك عباءتك القديمةَ يا قمر

واسرقْ لهم بعض الذرة

بعض الذرة..)

(٢)

الأمهات بلغن سن اليأس في صمت القرى

عاما فعاما والسراويل القديمةُ في انتظار

فخرجن في ليل القرى

يخمشْن أفخاذا ويلطمن الفروج

يحلبن أضواءَ البروج

يشهقن إغراء ويبكين ابتهالا للقمر : .

(لا تلتفتْ للحور . . لا تأخذ مناديلَ السفر

منهن ، جئنا يا قمر

ادخل هنا ،

واسق السراويل القديمة يا قمر . .)

(٣)

الصبية المتوحشون

تركوا أصابعهم بقلب الأرض ،

قاموا يصرخون :

(إن كنت تسمعنا فألق جماجم الموتى التي

رُصّتْ كئوسا فوق مائدة السماء

دعها بما فيها من الخمر التي عُصرت لهيبا في دماء

واجهْ بعينيك العيون الغاضبة

إن كنت تسمعنا فثبِّتْ عينك الجوفاءَ في عين البشر . .)

(٤)

الموت يمشي في القرى

خطواتهُ في الريح جسرٌ لا يرى

يمشي بطيئا ، يخلع الأكمام ، يرمي ثوبه فوق الفضاء

أنفاسُه دارت لتطفىء كلَّ مصباح مضاء

فجرى إليه الصبية المتوحشون

لاذوا برجليه . . فغمغم في صفاء

ناحوا له فجثا وغمغم وابتسم

وأضاء في عينيه مصباحُ الألم

صاحوا به :

هذا قمر

فمشى بهم . . خطواتُه في الريح جسرٌ لا يُرى

ألقى عباءته عليهم وانتفض

لم يشعروا بالموت وهو يطير في جوف السماء

رقصوا بكفيه ونادوا :

(يا قمر

هبنا الذرة

هبنا الذرة . .)

١٩٦١/٧/٢١

القاضي

وداري على «ملْطش» من وجوه الغباء المطلة

ومن أعين الصفر والصلع،

تحت الأهلَّة

يشدون قلبي

يدقون أبواب صمتي

يسيرون بي عبر وادي الغرانيق دامي العيون

يقولون:

«يستنْوق الفحلُ إن جاع . .

نحن الصفوف المضيئة . . »

فيهتز رأسي قليلا وتلتف أنشوطة السم حول اللسان

يشدونني عبر سياحة الطين والأرز حتى «الرصيف»

عقاقيرهم دوَّختْني بغيبوبة العقل،

دقت بقلبي الخوابيرَ

دقت بعيني الرغيف

فتخبو الفوانيسُ، والتبغ يحتزُّ روحي

ولا يقتل الشعرَ في القلب،

لا يطلق القلب من «ملطش» الصلع والأغبياء

أغني على ملتقى البحر بالبحر . . بين الردى والحياة

يُميتون طعم القصيدة أو يسلخون المياه

وأثوابُهم فوَّحت بالعقاقير والتبغ

أسنانهم حفَّرتها الدخائن

وجسّوا بأيديهم الصفر عقلي وقالوا:

(فتى طيب ليس في عينه طائف من جنون

وفي وجهه السمح يبدو السكون المريح

سنحميه من كل سوء،

ننادي به قاضيا للمدينة . .)

وأظفارُ شعر تلوَّت بقلبي . . تعيد الصبا من جديد

فأهتز خوفا من الأغنيات الدفينة

وتهتز حولي نجوم النحاس

وتصطف فوق الرصيف الأهلة

ينادون بي قاضيا : عاش قاضي المدينة

يسيرون بي . . فوق وجهي ينزُّ الوقار

يقيمونني فوق أعوادهم أول اليوم

تصطف حولي العيون .

وفي ردهة الصمت ثديان عادا من الموت،

وجه امرأة

وزندان في القيد، عينان لا تطرفان
تغوصان في أضلعي خنجراً من أغان.

وحدَّقتُ في وجهها الحلو.. ضجت نوافيرُ قلبي
وغمغمتُ في ردهة الصمت
(نحن التقينا
ولكننا لم نعْد غيرَ تاريخنا..
نحن جئنا خلال الجحيم
فألقيت قلبي لحراسها الصامتين
وألقيت روحي..
فجاءوا بأكوابهم.. علموني الضحك
فكم مرَّغتني الأغاني على شالك الأسودِ
وأهرقت عمري هوى عاصفا صامتا،
عند أبوابك السود أطلقت سرب

الفراش الذي لم يعد فيه لون

وصليتُ في معبد الصمت، أطعمتُ روحي العناقيد

في موسم من أغاني الجنون

ويارحمتا. . نحن جئنا خلال الجحيم

على جبهتي آيةٌ، آية في انطباق الشفاه

بأني بريء وليست بأغوار عينيَّ رؤيا جنون.

أديري إلى الأرض عينيك. . قد يسمع الحاضرون

وقد تشهد الأعين الخُرس أطلالَنا في العيون

وقد يطرحون الكراسيَّ، يلقون فوقي

رداء الوباء. .)

وناديتُ أعلى نداءٍ ليطغى على صوت نافورة الموت:

هاتوا الدواة

وقولوا ليَ الآن . . ماجرمها؟!

فاستضاءت وجوه

وقالوا:

(«خلال الهزيع الأخير

من الليل . . يهتز سقف المدينة

على صيحة العهر . . يجري من الخوف حراسنا

الطيبون

وفي سمعهم قولُها اللصُّ: «قلبي مريض فأقبِلْ

إلى شاليَ الأسودِ

وغنِّ التراتيل واركع على النهد . . يا شعلةً

من جنون

أضئني . . أضئ ظلمة البطن . . فجِّرْ نوافير

صدري . . »

وأحلامُها فجرت نبع خوف وأجرت رياح الوباء

فمادت بنا الأرض واهتز سقف المدينة

ومن دارها فاح عطر الزنا وانزوى في القلوب
فحطت طيور التشهي وطارت طيور السكينة . .)

وفي الصمت . . في أفدح الصمت . . والموت يلتف
بالساعدين
أشد الحبالَ على جيدها الصلب
أطوي حبال الردى
فتصفرُّ . . تصفر . . والعرْق فوق الجبين
ينادي التواريخ . . عينياي لا تطرفان .
وثديان من محجر الموت ، عينان لا تبكيان
يغوصان في أضلعي خنجرا من رماد
ولا تهجر القلبَ نافورة الخوف ،
تصطفُّ حولي العيون
وتهتز حولي نجوم النحاس
وتهوي الكراسيُّ تحت الأهلّة

فيهتز رأسي . . يدوِّي سلام الختام
وفي زحمة الصوت أبكي قليلا ،
أنادي :
«سكونًا . . فما زلتُ في أول اليوم ،
هاتوا الذي فجَّر الخوفَ ،
هاتوا الذي ضاجع المرأة العاهرة . . »

١٩٦٢

حواجز منتصف الليل

تفرَّعي، وأنشبي الجذور

بقلبيَ الصموتِ،

ياهواجسي التي تموت ساعةَ النشور

وقلِّبي كوامن الرماد في العروق.

أنا وأنتِ لم نزل مطاردَيْن في قصائد السفر

مروَّعين من بشائر المطر

ومن تخوُّف العبور في مزالق الجسور..

حملتُ وجهكِ المروَّعَ العيون

محفَّرا بداخلي وغائرا، مشيت في السنين

أراقص الرياح، وانتظرت أن تميتني صواعق الجنون
لأبدأ الغناءَ في الظلام
لتبدئي الطلوعَ - يا جنين روحيَ الحزين -
أخذت من عبيرك الرهيب خمرةً،
غسلت طينتي بنار حلْمتيك
فأعشبي . . لتضحك المواسم الخفية الثمار .

حملت وجهك الملونا
بكل ما عرفته من الهُجاس
بكل ما يسيل في أصابع الرصاص
من الدم الخفيِّ في مقاصل الخلاص
وسرت عاريا . . يحط طائر الهجير
على قناطر القرى وفي شوارع المدن
ينقِّر السما فتنزف الجنون

خناجرا تطير في الفضا
ولا تميتني لتنبت المواسمُ الجديدةُ الثمار
والفصول .

حملت وجهكِ الأصمَّ وانطلقت في الخلاء
على جبينيَ الممزق انطفاءة ،
وفي الضلوع من تفجُّعي سحابةٌ ،
وماء
يرجُّني ، يدعُّني ، يعود بي إلى مزالق الجسور
ويقدح الشرار في عيون كل شيء .

تميتني هواجسُ الفرار
تعيدني بشائر القصاص
فأبدأ الغناء في الظلام

وفي انتصاف ليلنا تحط نغمة عميقة السلام
فتَملَئِينَني بطميك الغريب
وتعصرين حلْمتيك في قصائد السفر .

أريد أن أنام في عبيرك الخفيْ لحظتين
أريد أن أنام
وطائر الهجاس والجنون ما يزال في تعقُّبي
يحط كي يطير
ولم أزل معلَّقًا به . . أحط كي أطير
ووجهكِ الرهيبُ لم يزل محفَّرا بداخلي ،
ولم أزل معلقا بطائر الهجير
أحاول الفرار .

١٩٦٤

مدخل إلى دفتر الصمت

البومة

أنا بومةُ القرية الساحلية
بأقصى الشتاء الشماليِّ . . حفَّرتُ عشي
بجميزة الليل، أطلقت أحلام روحي
وأسقيتها من سواقي الجروح
فمدت جذور النبوءة
بأرض الأساطير والحزن حتى انحنت بالثمار
وفاحت بما يحمل الكون في قلبه الأبكم
من الشعر والموت والإنتظار
وفاحت بما تحمل الأرض في جوفها من
بكائية طيَّرتْها بسقف النهار .

أرى طينة الأرض شاخت فلا تنبت الآن غير الرماد
أرى دودها الفارغ القلب قد ساخ فيها
فياساعة الأرض. . يا طائرا من حديد
لتنقضَّ حتى أرى كيف تأتي القيامة.

عجوز أنا. . لم أعد أستطيع الفرار
ولو كنت نقَّرت عين النهار
لما كان للرعب سلطانُه الرحب،
لاستقبلتني المدينة
نبيا. . بألواحه السود رؤيا، وفي عينه
جمرةُ الوحي تنصبُّ زيتا ونار.

أنا بومة الطينة البربرية
بجميزة الليل حفَّرتُ عش الغناء الكئيب
فقد فارت الأرض جنسا وطمثا من الدود والرعب،

لم تشرب الموت تحت الصليب

ولم تعرف السجن حتى ترى روحها البربرية

فأقبلْ . . أيا طائرا من حديد

إلى جيفة الأرض . . دعها تذق موتها مرتين .

أنا بومة الغربة الداخلية

بجميزة الليل ضيَّعتُ عمري انتظارا

ولم ألق في كوكب الثلج نارا

فأبحرت في ليل قلبي السجين

فياطين . . ياطين ردِّدْ غنائي

ويا طين . . يا طين . . واعصر دوائي

من الليل ،

واصعدْ إلى عالمي من جديد . .

١٩٦٤

الزفاف الدموي

أميرتي الصغيرة
تُريق من جرارها الخمر فيعشب السكون
وتُنبت المفاوزُ الضريرة
عرائشًا من الصدى المميت والجنون .

ولو جُننتُ ساعة . . فإنني سأمضغ الرمال
وأحصب الوجوه بالحصى وأدَّعي الفرح .
ولو أموت ساعة . . فإنني أمر من مخارم الجبال
إليك يا أميرتي . . ونبدأ الحداد والغناء .

لو أنني أجن أو أموت
فسوف تزهر الحدائق المعلقة
وتشربين من عروقيَ الممزقة
وأبدأ الرضاع من حليبك الذي يفور طميُه،
وأبدأ الطواف
أدور راقصا على درابكِ الدماء
ولا أعيد غنوتي الملفقة.

ولو أجن أو أموت
لكنتُ - حين جاءني مخاضي الشعريُّ تحت جذع نخلة -
وجدتُ بعضَ تمر
أو كنت قد وجدت حوتّنا الذي صحا بأي بحر
لو أنني.. أوّاه يا أميرتي الصغيرة
أسير في مفاوزي الضريرة

وقد وصلت عند بابك الخفي ذات ليلة مطيرة
فأومأتْ إليَّ بالوداع كل شرفة ،
ورحَّبت ستائر المساءِ
هلَّلت مغاورُ الخلاءَ
يشدُّني اصطخاب كرنڤالك الأخير
تدعُّني الغرف
وليلتي تريق زيتها من الجرار في مفارق الطرق .

وقد وصلت عند بابكِ الخفيٍّ راقصا بغير ثوب
رفعت كوبتي ، انتظرتَ في حدائق التوحُّد المرير
فصرت قطرة من العصير في جذورها ،
وبومةً بسقفها
وعالَمًا يغوص في سريرة الظلام
فيهرب الغناء في حوافر التوجُّس المرير

وقد جننت حينما سمعت صوتكِ المعتقا
تسيل غمغماتُه خلال كل شيء
فتدفق الدماء في مواسم الجسد.

وقد جننت حينما رأيت وجهك المخيف
يدور في اصطخاب كرنـــفالكِ الأخير
مروّعا،
يطير في غمامة من الردى
فيركع الضيوف
وقد أتيتُ راقصا إليكِ من نهاية الصفوف
خذي يدي..
أنا وأنت فكرة من الدماء والجسد.

ولو تخاصرت دماؤنا.. فسوف نبدأ الزفاف

أنا أطير راقصا خلال نهدك المغيِّمِ الوديع

وأنت ترقصين في الضلوع

أنا قتيلُك المحبُّ يا أميرتي وقاتلك

أنا وأنت طائران ضائعان في سحابنا الأخير . .

١٩٦٣

العشاء الأخير

أبي ضمَّ فضْلَ العباءة

على منكبيه الهزيلين فاهتز تابوت قلبي

ونادى:

(خذ السمسم المرَّ، هذا رغيفُ الشعير

تبلَّغْ به لقمةً كي تذوق الدماء التي

أُشربتْها السنابل

تذوَّق به طعم لحمي الذي كان يشويه

صهدُ النهار المخاتل

تبلَّغ به واحذر الأرض..

دنياك دنيا الردى والفُجاءة.)

وأمي التي عَصَّرتْ ثديها للقبور

تعري ليَ الصدر . . (خذ يا فتاي الصغير .)

وقد شيَّعتْ سبعةً من بنيها

إلى الأرض . (هذا دمي يا فتاي الصغير .)

حكاياتُهــا طائر صلَّبـتْه الرؤى . (لاتخف غـيــر هذا التراب .)

ومدَّتْ ليَ الثدي كأسا من الثلج تطفو على وجهه

رغوةٌ من دماء وطين

(رهيب هو الموت . . عرى من اللحم «محيي ونور» .)

أبي ضم أمي وقالا :

(خذ الآن هذا العشاءَ الأخير

ستمشي من الدار في الصبح ،

لا تنسنا ليلةَ العرس . .)

فاهتزَّ تابوتُ قلبي . .

* * *

وحُمِّلتُ في القلب تنِّين حزن

وأخفيت عينيه في رعب روحي،

انطلقتُ

مع الصبح في طيبةٍ وادَّعيت السرور.

قريب أنا.. يا صديقا أرى جرحه في الضلوع

أرى حفنة من يمام القرى فوق عينيك

حطت وطارت.. على صدرها آيةٌ من دماء الوداع

قريب أنا فانتظرني

تأرجحْ بدوامة الصمت واكتمْ بجنبيك بعض الدماء

وأغمضْ على ما تبقّى من الأرض والشمس جفنيك،

وازرع على صخرة الأرض بعض الأغاني الأخيرة

أرى بيننا سور رعب.. وآ..

يا صديقي انتظرني

وخذني إلى ظلك الجاثم المستجير

قريبا من الجرح،

هبني قليلا من اللحم

واسكب بصدري

دما باردا معتما يطفىء النار في الصدر،

أطفىء نوافير قلبي

وخذني إلى صوتك الرحب يا. .

يا صديقي انتظرني

فقد صارت الأرض هذا الطريقَ الذي بيننا

وقد صار هذا الرمادُ الذي يملأ الكون سورا

من الرعب يقصيك عني

ويقصي دمي عن عروقي

فما عاد في الصدر عشٌّ انتظار

وضيَّعت زادي من الخبز والخمر،

صبَّت سواقي النهار

عصيرَ الطريقِ
وفي الليل ناديتني يا صديقي
من الكون :
(خذ من دمائي دواءَ الزمان الحقير
وخذ فلذةً من ضلوعي
ونمْ ساعة تحت ظلي . .)

بعيد أنا يا صديقي . . وفي وحدتي
لم أعد أستطيع العشاء
ولا أستطيع الكرى قبل أن تُرجع الأرضُ ما ضاع مني
فيأيها الطمي أرجِعْ
لدوامة الريح قلبي
ويأيها الأفق صُبَّ الرؤى فوق عيني
ويأيها الطمي أرجع لأمي بنيها الصغار . .

* * *

حصاني هو الريح في مسرب لا يحدُّ
وخمري جرارٌ من الرعب،
خبزي دوار
فإن تتركيني أمت. . يا سواقي النهار.
وحيذ أنا. . يا صديقا بلا أعين أو شفاه
وحيد أنا في مهب الحياة
وقد فر قلبي من الأرض. .
هاجرت من واحة الإنتظار
فيا كوكب الرمل والصهد والريح. . خذني. .

١٩٦٤

الأم المجنونة

افتح عينيك الصافيتين

وانظر من ثقب الأرض شعاعَ الشمس الأولى

والضوءَ المنسكب من القمر الأول

انبشْ قبو الظلمات

يا طفلي . . يا «محيي الدين»

انزعْ خصلات الشعر من الطين

وارفع أذيال الكفن المبتل

وتعلم غرغرة الآهات

لا تضحك حتى لا تخطفك الحوريات

لا ترقص فوق معارجهن الفضية .

ثدياي امتلآ . . فامنح صدري شفتيك
امنحني زناري المقطوع
واصعد كي تشكو من ظمأ أو جوع
واصرخ لأغطي ساقيك العاريتين
اصعد . . ففطائر عيدك مازالت تعبق في جوف التنور
والقمر الأخضر ينُبت عشب الجنيات
والشمس الأولى تدْرج في معراج الصمت
والفرس تدق حوافرُها في عتباتِ البيت
فاصعد من أعماق الموت
يا طفلي . . يا محيي الدين
اصعد من أعماق الموت . .

اخضرِّي يا ريح الليل المفجوع
حفَّرْتُ جدار القبر . . فرف عبير الحنطة والحنّاء

استيقظْ يا قمر العشب السكران

غمغم يا جرس الشمس الزرقاء

طفلي يتلفَّت فوق الأحصنة الخشبية

ويطير خلال الريح . . على عربات من

قش ووسائد من ريش

طفلي يتخاطف سيف البرق ويركض في الأمطار

يتردد صوت خطاه خلال الظلمة في الآبار

ينطلق غناءً وهواءً في البرية

طفلي يرقد في أقبية البحر ،

يطير بسروال من زبَد ،

ويحط بنافذة الميناء

فيخاف عويلَ الطرق الأسفلتية

ويطير ليهرب في الصحراء

نبعًا ونخيلا ونشائدَ حب بدوية

ويهاجر فوق حصان الريح
فأشم عبير لفائفه الأولى
وأحس يديه على ثديي الممتلئين .

هذا صوتُ الطفل الضائع يصعد من أعماق القلب
يبكي في غرغرة الرعب :
(أمي . . خطفتْ روحي بنتُ السلطان
دقت في صدري قنديلَ العشب
غرست في جنبيَّ السيف القمريَّ المخضر
زرعتني في منبت نهديها قارورةَ عطر
في ليلة عرسي . . خطفتْها الغيلان
وانسكبت في قلبي موسيقى الموت . .)

اجلس في ملقى قنوات الطمي المعشب يا محيي الدين

واحلم في ظل الجميزة

واسمع موسيقى الأرض تطن بساقية الطين

حتى أبحث عن خطِّياك الهالعة العينين

سأمر خلال الأبحر

سوف أمزق وجهي الذابل في الوديان

سأولول حتي تسمعني بنتُ السلطان .

عودي من أغوار السجن

فوق سرير العرس الفارغ حط الصمت

صبّي في قنديل العشب المطفأ بعض الزيت

يا بنت السلطان

يا فرسا تنتهب شعاعَ الشمس

يا وترا مشبوكا في قيثار الريح

عودي من أغوار السجن

فوق سرير العرس الفارغ طارت من أقدام
الجن
حفنةٌ ثلج مصبوغٍ بالدم
عودي من أعماق السجن
فوق سرير العرس الفارغ حطت خفّاشاتُ
الملح

يا بنت السلطان
يا أغنية القمح المسروق
عودي من أعماق السجن
واخضري في صلب الدار
عودًا يطرح ملم نعرف من أثمار
فوق سرير العرس الفارغ كوني الشجر
الوارف والأطيار
كوني خاتم محيي الدين

كوني رحما تنفض طمي الأرض

فتملأ وجه العالم بالأطفال.

١٩٦٤

دلتا النهر الأسود

-: ماذا يملأ عينيك الطافحتين بشمس الجوع؟!

-: يملؤها شبرٌ من أرض خضراء

يملؤها شبّاك يشرب من حنجرة الريح

وشرارةُ برق تخطف قلبي الطائرَ في الظلماء

يملؤها أن أتخبَّط بين نصالِ الرعد

مرتعشا أطرح فوق الأرض قميصَ دماء.

-: الأرض تدور على محورها المائل،

لن يأتينا فصل الرعد

وشتاءُ البرق الأخضر لن يأتينا قبل الصمت .

- : آه لو كنت ملاك الموت

لغسلت الأرض من الضوضاء

وشنقت لغات الأرض

ونصبت مقاصل فوق الجسر ، بنيت مدائن صمت

- : ماذا يغريك فتبحث عن فاكهة السنط ؟ !

- : الليل القاسي ينصب لي أشْراكَ اللغة الإنسية

يشنقني الليل بما ينهدل من الأجراس الغبشية

يطرحني تحت سنابك صوت من فخّار

وأنا أسمع ريحا تولد في الآبار

أنتظر هبوب اللغة السفلية . .

* * *

يسألني شجر الصفصاف:

(من أية ريح ملعونة

امتدَّ الخنجر.. مزق ثديي النابتَ في الأعماق

وانسربتْ حيةُ ملحٍ تنهش رحمي الثمرية

فأظل على شطآن النهر بلا أزهار

وأموت بسن اليأس بلا أثمار!!)

يسألني شجر الجميز:

(من يحمل عني سلة أثماري الذهبية

ويراوغ، يترك تحت الصَّهْد صغاري الأيتام!!

من يأخذ مني خشبي الطيبَ كي يصنع مقصلة خشبية

أو يصنع منه النعش أو التابوت!!)

يسألني القمر السهران:

(من يملك وجه الأرض فيحرم من

ثديي صغاري الغرباء!!)

* * *

أقدامي انغرست في الصخر

نهداي انفتحا في أعماق البحر

وركعت ألملم شَعري الأخضرَ في الظلماء

وأنادي الصمت فيدفق بالأبناء

أُلقمهم ثدي السنط على شطآني الشرقية

وأقص عليهم بعض حكايا الجوع الطافح بالآلام

فتحط عليهم شمسُ الرعب

أدفنهم بعد العصر بشطآني الغربية

مضمومي الأيدي. . يرتعشون بأكفاني الكتانية. .

* * *

من أعلى الوادي انطلق الفارس ذو الأجراس

يستجمع في عينيه الصيفَ التائه في الصحراء

يرتاع لما تنطقه الأرض من اللهجات الرملية

تضحكه جنيات ترقص في خلجان الريح

في الليل يغمغم بالأحلام

في الصبح يصلصل بالآلام

ويجوس خلال مدائن صمت وحشية

وتضيق عليه البرية . .

* * *

– : ماذا أبقاك هنا يا طين الأرض السوداء

ماذا أبقاك فلم تهرب حتى أرصفة البحر ! !

– : أبقاني جرح في الأعماق

محفورٌ في صلبي ينزف عشبا للأغنام

وصغارا للأرحام

وفطائرَ عيد للأيتام
ورجالا سُمْرًا ونساء يغمرهن العالم بالأحلام
وحدائقَ شجر لا يهجرها ثمر طول العام.

-: ماذا يبقيك الآن وقد طمرتك الريح
واندمل الجرح الطيب في جنبيك
ماذا يبقيك ورعب العالم يصرخ في عينيك؟!

-: يبقيني حلم بالأمطار
وفصولِ الرعد الطائرِ بالأثمار
أنتظر ثمار السنط وأزهار الصفصاف..

* * *

ينحدر الفارس ذو الأجراس
من قلب المدن الوحشية

يتّكيء على أسوار الريف

(ملعونٌ - إن لم يثمر - شجرُ التين .)

يذهله صوت يندب في الآبار

(ما أقسى الأرض إذا لم ترحم صوتا يرقد في الأغوار .)

تنغرس خناجر صمت في جنبيه

(موحشة أنت . . أيا أطلال .)

يشعل غليونا ، ينظر صوب الشرق وصوب الغرب

(من أي سماء تشرق شمس الرعب؟!)

-: ماذا قالت أجراس الموسيقى السفلية
حتى يهتز السيف بيمناك؟!

-: أجراسي تندب في مرثية الليل

أجراسي تبكي جرح الأرض السوداء .

-: والسيف الغاضب في يمناك؟!

-: إني أنتظر الليلة في أبواب الرعد
أنتظر عبور الأشباح لأقتل شبح الصيف الأسود
وأحاكم شجر الصفصاف
وأقيم صغار الأرض شهودا حين أميت الجميز
وأعيد الجرح النازف في أعماق الأرض

* * *

أنصتْ يا شجر الصفصاف
وارفع خصلات الشعر الطائر واكشف هذا الصدر
آ. . ها !! أين النهدان، وأين أضعت الأرداف؟!
من أخرس فيك اللبن الحيَّ. . فعشتَ على

شطآن النهر بلا أبناء
وغفوتَ الليل فلم تتراكض فوق الأرض سيولا بشرية
وأضعتَ عصيرا كان يبشرني بالنسوة والأبناء!!
أهدرتُ دماءك يا صفصاف
لتعود امرأةً حبلى أو أطفالا يغترفون حليب الأرض.

(فلْيقتل شجرُ الصفصاف
فليقتل شجر الصفصاف
فليقتل شجر الصفصاف..)

أنصت يا شجر الجميز
في أي عصور الرعب تعيش فتحمل طيبة هذا القلب!!
أثمرتَ سلالا ذهبية
وغفوتَ لتغرق في الأحلام

فأضعتَ طعام الأيتام
أهدرتُ دماءك يا جميز
لتعود رجالا وخناجر . .

(فليُقتل شجرُ الجميز
فلْيقْتَل شجرُ الجميز
فليقتل شجرُ الجميز . .)

* * *

صرختْ عذراءُ الأرض المهجورة :
(فارس قلبي الطيب
لم يأت من الأسفار الليلية
قتلتهْ الأيدي الشبحية
نثرتهْ رمادا في الغيطان وفي أصلاب الدور
سكبت دمه في الآبار

أكلت عينيه الأطيار

شرب النهر الصامتْ خمر القلب

آه . . يا فارس قلبي الطيب

صوتُكَ في أعماقي يعشب ليل نهار

يبتهل نداؤك : «ياصفصاف

أثمرْ حتى نطعم يوم العرس . »

تخضر صلاتك : «ياعنقود البرق

املأ كأسك حتى نشرب يوم العرس

واعزف يا قيثار الرعد

حتى نرقص للموسيقى السفلية . »)

* * *

– : أحلم أن امرأتي العاقرَ وضعتْ بنتًا حبلى

بعد قليل وضعت طفلا يحمل خنجره في

الصبح ويذهب للكُتّاب

أحلم أنهما رضعا ثدي الأرض وثدي الشمس

قالا شيئا فانفجرا في ضحك صاف

-: ماذا قالا؟

-: قالا لغةً لم أسمعها في أركان الأرض . .

٩/١/١٩٦٥

مكابدات كيخوتية
«متتابعات»
١٩٦٢/٧/٢٥

المتتابعة الأولى

(١)

رياحُ الرغبة الأولى

تزلزلني وتفتح بابها الأسود

على فرعين يهتزان بالتفاح والحيّات

على نهرين ثلجيين يرقد فوق ثلجهما ملائكةٌ وجنيات

تدبُّ الرغبةُ الحمراءُ في أفخاذهن البيض

تحط الغيمة الزرقاء

ويمشي المـاء

خيوطًا تغسل الأجساد بعد الليلة الأولى.

* * *

يميل الغصن بالتفاح والحيات

على نهدين ناريين . .

أشرب جرعة من خمرة بيضاء

فيزهر في دمي التفاحُ، تلهثُ في دمي حية .

* * *

وأمشي في رواق الصهد في الصحراء

فينكرني دمي المسجون في الإعصار

وتنهشني مخالبُ رغبةٍ أولى

وتحفر إصبعٌ مجهولة في الصدر ليل نهار

وتنهش قلبيَ الدامي

فتورق أغصنُ التفاح بين نواجذ الحية . .

(٢)

لو سال الصهدُ من الإبريق الرملي

بحرًا . . ألقيتُ إليه بقلبي المهجور

تنهال على وجهي المسودِّ خيوطٌ من نور

فتئن بصدري أخشابُ الجندول الناري .

* * *

أبتدئ الرحلة في صبح محموم العينين

وأحار قليلاً عند تقاطع دربين

أبتعد عن العالم . . ينأى نصفُ نهار

يغسلني الصهدُ، يُعرِّيني تحت الشمس

تمضغني الشمسُ قليلاً، تلقيني فوق الصحراء

تطرحني . . أجعل من جسمي ظلا

اتمدَّد تحت عباءته حتى الليل

أنتظر عفاريتَ الظلمة

أنتظر عفاريت البئر المهجورة في جوف الصحراء . .

(٣)

عيناي في عينيكِ ياشمس الظهيرة

نارٌ يئزُّ لهيبُها في القلب،
دُورٌ عُرِّشَتْ بالزيت والنار المغيرة
يَنْصَبُّ غيثٌ غامرٌ يقتلع الأمن فلا
تهدأ في الصدر أعاصير الأغانى . .

* * *

عيناي في عينيكِ، رمحٌ في يدى
غنيتُ أعوامًا ليمضي في الهواء
طيرًا يشقُّ الريح للشمس البعيدة
غنيت كي ينشق رمحي في السماء
رمحين ينشقّان . . تنشق الرماح بلا انتهاء . .

* * *

عينياي في عينيك يا شمس الظهيرة
والثلج في الرسغين،
والقلبُ المؤَرَّقُ لا تطاوعه الأغانى . .

(٤)

هذه الريح التي تولد في بئر الثوانى
تخلع الوجه الذي رَثَّ،
وتُلقيه إلي شدق الثواني
والثواني تلد الريح ولا تشبع من لحم الوجوه
وعلى وجهكَ . . في الليل العميق
غبطةٌ ماردةٌ . .

حين أقمتَ الدار في ليل العروق
صرتَ طاحونَ العظام
حينما تسكر نلتفُّ ببُرْدٍ من سلام
يَرْحُبُ العالمُ، يهتز لنا قلب صديق . .

* * *

أيها الخوف البدائيُّ العميق

تنسج الليلَ - على إبرتك السوداء -

باالحلم وأشعار الجنون

تطلب الصبحَ فيأتيك من العشب الزجاجيِّ الحزين

تأخذ الأرض إلي صدرك . .

لا يُفلتُ من كفكَ خيطٌ من علق

أيها الخوفُ الأبُ الخبزُ الصديق . .

المتتابعة الثانية

(١)

تلوّى قلبُه المجهد
وأثقلت الرؤى عينيه وهو يموت فوق حماره المسلول
فتُمسكه وتصلبُ عودَه، تْلتفُّ بالزندين أنشوطة
ويتبعني غريقًا روحُه بالنجمة البلهاء مربوطة
تئن عظامه

«كانت بغور القلب غرناطة
تضيء قصورُها الذهبيةُ الردهات»

يتبعنى
ويغسل جرحَه بالصهد

«أسمع رنة التيجان»

يغمغم ذائبًا في جرحه : أوليه
وتشرق بسمةٌ في دمعه السيّال . . يتبعُني .

* * *

ترابُ الحافرِ الدَّوار ينشر عطرَ مملكة تنادي قلبكَ المخبول
فتنسى موتَكَ الرَّمليَّ ، تنهر جحشكَ المسلول
وغرناطـــة
توهجّ عـرشُـهـا الذهبيُّ واخـتـلجتْ على أســوارها
الرايات .

* * *

سأطعن طعنةً نجلاء
فتومض حربتي بنهاية الحراس والغلمان
ونعبر أولَ الأسوار . . تتبعني
«وأتبع ظليَ الممدودَ في الصحراء . »

(٢)

الشمس والرمالُ قطرةُ من الدماء في العروق

والبحرُ والجبالُ شارةٌ على مداخل الطريق

تبعثرتْ على حجر

تناثرتْ على هياكل البشر

ولَوَّحَتْ بثوبها تحاول الخلاص .

تبعتُ صوتَها الحزينَ فابتعدْ

رأيتُ وجهها يسيل قطرةً من العرق

على الزنود،

جدولاً من الشفاه والعيون

يئن مجهداً بساعة القصاص .

(٣)

غرناطةُ الأعماق

معروشة بالنار والحطب

والأرض سور تحته شواهد الأحجار
والدود في الأعراق
يأكل عشب الليل والنهار
فما الذي يدُعُكم إلى لزوجة السُّرر
والأرض سور تحته شواهد الأحجار!!

أميرتي.. على حوائط المساء صرختان
أنا وأنت نخلتان في القفار
فمن يردُّ عنا الريح والأطيار
ومن سيجني تمرنا قبل هبوب العاصفة!!

(٤)

البرج والناقوس والصلصلة القوطية
أصابع ملويَّة
تضيق من حول الرقاب أوتَغرِسُ في الصدور

أصواتَها الصخرية.

تكنس ما يسقط في الشوارع

من عرق مذعور

والرعبُ شارةٌ تدقُّها الأصداءُ في الوجوه.

(يأيها الصدى.. قد أشرأبّت الرءوس.

والنهار

قفّازُ هذي الأرض، والرجال

سيشهد ونني أخلعه في وجهكَ المجدور

والضحك المطويُّ في الأرصفة المقهورة

يمتدُّ في ظلال حربتي ويشرئبُّ كي

يراكَ منخريْن داميينْ

ورأسُكَ المجوَّفَ المليء بالأصداء

يطيرُ في الهواء

أغنيةً مذعورة

يأيها الصدى.. فانتظر النزال..)

المتتابعة الثالثة

(١)

رأيتها تفتح في السماء

نافذةً فضية

رأيت في بسمتها فراشةَ الدمع وزهرةَ الألم

رأيتها تمد أصبعين في الضلوع

فباح بالدفين كل شيء

«إذا رأيتَ وجه عاشقي الأمير

فقل له : أميرتي توجَّعَتْ

فقد رأتْكَ شاحبًا ، ودمَّعَتْ

فقد رأتْك في انتظارك النبيل . »

(٢)

الثلجُ قُفْلٌ علَّقتْه الريح

بباب غرناطةَ ،

والضلوع

عش وبلبلٌ يجوع

وكانت الأشياءُ أعينًا تقرحَّتْ بالشمس والدموع .

* * *

أميرتي . . أنا رجعت والسماء مطفأة

أنا وقفت تحت شرفتي المخرَّبة . .

الدوامــــة
«شـــظايـا»

(١)

دمي يفورُ بالصور
تسيل فيه أفْرُعُ الشجر
توتَّرَتْ زعانفٌ ودَوَّمَ الشرر
كواكبٌ تكسرتْ وكَحَّلَتْ عيونَ منشدين.

***

دمي يفور بالزجاج والحصى
تسيل فيه من قياثر التراب غنوتان
أري افتراق عالمين غير أنني سجين
دمي يريد أن يفرَّ - ضاحكًا - من العروق.

(٢)

نامت الأرض وألقتْ رأسَها في ظلمة الليل العميقة

وارتمى في حضنها كوكبُ عشب أسودُ العين مراهق
دَسَّ في منبت نهديها من الطحلب، مَسَّ الشفتين
وسقي الشَّعْرَ من الرغوة فاهتزتْ على الصدرِ زنابق
ونما العشبُ على السرة،
والنومُ عشاشٌ وطيورٌ وحدائق
والرؤى تضرب في البطن مُدَاها الدموية
تحلم الأرض بوجهي المتألم
وأنا أصرخ في بطن الخليقة . .

(٣)

على مزلق الأرض تمشي الحُبالى،
يضعن الصغار
ويتركْنَهم في انحدار النهار
فيملأن باللحم أيدي الرياح

وتنصبُّ - عبرَ الليالي - العيون . .
وفي آخر الأرض نافورةُ الجوع ،
صوتٌ خفيضٌ فريدُ الجنون
يغني إذا مرَّ في الليل ، يبكي طوال النهار . .

(٤)

أردتُ أن أفَتِّتَ الرءوس في مقاصل الغناء
لأنني المفَجَّعُ الوحيدُ في مواسم الضحك
لأنني المغرد الوحيد في حدائق البكاء

(٥)

صوتٌ يتلوى في القلب
في ركنٍ ناءٍ مهجور .

البرجُ قديمٌ، والسور
قرميدٌ حيٌّ حَفَّره صوتٌ يتلوى في القلب
وابيضَّتْ عيني،
والصوتُ الأسود في الصدر
مازال يُحَفِّرُ أشكالَ الطير.
ويلون أقواسَ ضبابٍ وطرائقَ نخلٍ مسحور.

يأكلني الصوتُ.. فآكل من لحمي
يطرحني الجوع بأرض التعبير.

(٦)

الآن أغنيكم هذا الصوت.

وأغني.. لكنْ صوتي مذبوح

يخدعكم وجهي المسرور

والصوتُ الأسودُ إزميلٌ مغروسٌ في القلب

أغنيتي تحت الثوب رمادٌ محروق

أغنيتي السّوقيّةُ ليست إلا الجيفة

والجوعُ الأعظم يطرح قلبي في أرض التعبير

(٧)

يأتيني الطيرُ الليلى

يُلقيني تحت الديجور

لأغني . .

آكل ألسنة الحيات

ويسيل السم بشرياني الأسود

شعراً أســـود

وأغني تحت الأفياء المسمومة

شعرًا مسمومًا،

ويموتُ الشعر على شفتيَّ..

ووجهي مســرور..

(٨)

الزيتُ محترقٌ بأعصابي،

وريحُ الفحم باب

قد أغْلَقَتْه يدٌ من الصلب المذاب

فَتَصَلَّبَتْ قدمُ الهواء

والنورُ مرتعشٌ يحاول أن يفر إلى الخلاء.

سنَفِرُّ - في الريح الطليقة - في تمام الثامنة.

* * *

روحي تَخَطَّفَها الترقُّبُ، والدخان

طَفَحَتْ به رئتي..

ولا يمشي الزمان

الساعةُ المجنونةُ التصقتْ على كتف الجدار

مشلولة القدمين . .

ليلٌ خارج الجدران يمشي أم نهار!!

* * *

نبحتْ خلايا الجمجمة

دارتْ زوايا الصلب وارتعشتْ أمامي الأمكنة

برزتْ من الجدران أيد لينة

تلتفُّ بي، لأظل مشدودًا . . وأبكي الثامنة

فأري ملامح صورتي فوق الحديد الغُفْلِ

تنظر في اضطرابٍ وانتظار . .

* * *

الشارعُ الممدودُ ريح

تيارها يهتزُّ حول الأبينة

حملتْ عباءتُه رنينًا في ضريحْ

شهقاته دَقَّتْ تمام الثامنة . .

***

لو أنني حاولتُ في الظهر العبور من الرصيف

إلى الرصيف!!

لو أنني غافلتُ حراس المنار

ورميتُ جذعًا من جذوع السنديان

وركبته، ومضيت في الرحب المخيف

ووصلتُ دنيا عامرة!!

لو أنني . . صمتًا . . فقد دقَّتْ تمام التاسعة

سأحاول الآن العبورَ من الرصيف إلى الرصيف . .

(٩)

اليوم أرمي للفضا أزهار عامي الأربعين

فَوْدَايَ مصبوغان، وجهي مرتعد

كأسٌ من البلور في قلبي تَقَبَّضُ حولها كفُّ الجمد
وتشابُهُ الصبحِ المضَبَّبِ والمساء . .

* * *

كأس من البلور في قلبي تكسِّرُها أصابعُ من جَمَدْ
صارتْ شظايا تغرس الأسنان في صدري الخربْ
تجتثُّ أعشابَ الطفولة والصبا
وتعَضُّ أعصابي ،
وتَهْوِي في الركب
فأسير معوجَّ الخُطى .

* * *

ترتدُّ في قلبي الشظايا كأسَ بلورٍ جديد
تنمو ببستاني زهورُ الفحم ،
ياويلي إذا العام استدار .

(١٠)

صمتٌ، وبابٌ مغلقٌ،

والصبحُ إنسانٌ صغير

أقدامُه ابْتَلَّتْ، وجَرَّ ثيابه عبر القرى

عيناه أعشابٌ وماءٌ ذائبٌ بين الثرى

غنــــى . .

فلم أسمع له

نـــادى . .

فلم أفتح له

صـــــلى . .

فلم تنفُذْ حلاوةُ صوته عبر الجدار .

***

الطفل مدَّ ذراعه واهتزَّ في العين الشجر
نادى وولى مسرعًا يجري،
يجرُّ ثيابه تحت المطر . . .

١٩٦٢

من دفتر الصمت

الشـــاعر والهزيمـــة ..

لو جئتُ في عباءة الهزيمة
فأفسحوا طريقي
ففي جيوبها دفاترُ الجريمة
وبومةُ الكبريت والحريقِ .

لو نمتُ في مقبرتي القديمة
مكفَّنا بجامد الدماء
وأخرسًا ، وسادتي الغناء
فمزقوا جمجمتي
وخَوِّضُوا في رئتي
وصَلِّبوني مُثْلَةً في موسم البروق
ولَطِّخوا وجهي بطينة لئيمة .
في الليل سوف تهبط الصاعقةُ الخرساء
لتحرق الرماد في عروقي
وتنثرَ العظام في بوابةِ الشروق ،

تصلُبني في طرف السماء
تنير لي طريقي . .

لو أعشبتْ مقبرتي القديمة
أو أثمرتْ صفصافة السموم
فإنني أقوم
مضرَّجَ القصائد
مغمغمًا بما استرقْتُ من دفاتر القيامة .

لو جئت في عباءة الهزيمة
فلتسقطي يا أرضُ في حضني
ولتقطفي من ظلمة العين
أزهارك المشئومة . .

حديث من ألقبيادس

(١)

أميرٌ على جوْقة الريح ،

عينايَ، من زرقة البحر .

ما بين عينيَّ تمشي الشموس

جناحاي ظِلٌّ على الأرض يقْتاتُ من فيئه المتعبون

ولكنني أمنح الريحَ قلبي الحزين

فتغتاله الغمغماتُ الحبالى

ويَسْوَدُّ في القلب ضوءُ الشموس .

أنا أرفع الرايةَ المخملية

أنادي إلي الحرب عينيْ زيوس . . .

بصدريَ مازال نبعُ الدم المُرِّ،

مازال في الغمد سيفي

ومازلتُ أعلو على الريح حتى أرى الأرض

– في نظرة جانبية –
وحتى أرى أفْقَ قلبي .

(٢)

تئنُّ العلاماتُ في الصدر ، يهتزُّ في معطف الثلج قلبي
وينمو بتقْطيبة الوجه حزنُ الطريق
فأمشي وحيدًا ، ولا تنبت الأرضُ وجهَ الصديق
فقد بعتهُم – مثلما باعني الخوفُ – بَيْعَ الرقيق .

(٣)

أحبُّ الهواء الذي يغسل البحر ، لكنني
لا أحب الشطوط .

(٤)

وبوابةُ البحر دارٌ من الموج مسقوفةٌ بالطيور
وجدرانُها الزرق مربوطةٌ بالرياح
فتهوي وتصعد، والريح مَعْقُوفةُ الساعدين
وعينايَ في الموج دوّارتان.

(٥)

بمنفايَ في آخر الأرض لا تعبر الريحُ بين الزروع
ويهتزُّ حبل الردى في شواشي الفروع
فأمضي بعيداً عن البحر،
في مدخل الأرض تُقْعي كلابُ المدينة

تحسستُ آثار جرحي المميت

تحسستُ أصواتكم وانسكاب الرؤي في الحوار

وناديتُكم: أسمعوني حديثًا عن الحب قبل الفرار.

وياوجهَ سقراط، يا ضجةَ البحر.. في القلب

قيثارةُ الموت، في العين دمعُ الوداع..

(٦)

أنا كنتُ - ياقاتلي - في أثينا

إلهًا صغيرًا،

على مَفْرِقي الغارُ، أمشي على بركةٍ من دماء

وقد أخرستْني الغباواتُ إذ تَلْبَسُ الدرعَ،

تمشي بظل السيوف

وفي أعين العسكريين لا أعشق الصمتَ والموتَ.

أجثـــوا إليـــك

فأطلقْ من الصدر قلبي ا لصغير

ليبكي أثينا ،

ويسخو له البحرُ في عنفوان العناق الأخير .

٩٦٢/١١/٣٠

جريمة في غرناطة
١٩٦٢

(١)

غرناطـــة

غرناطـــة

وَتَرٌ مشدودٌ في قرنْي ثور

تخنقُه، تسحبُه للموت الأنشوطة

فرسٌ في الكوكب مربوطة

غجرٌ يخفون خناجرَهم في القلب

وعْدٌ برجال في الليل القاسي يلدون

فصلٌ خامسٌ

غنتْ عيناه، روائحه طافتْ بالدرب

دقت يمناه البابَ وصافح «ماريانا»

– : ماريانا . . أين الأبناء؟!

– : عفواً سيدَنَا . . ماريانا عذراء

- : ماريانا . . وجهي لم تُخْلَقْ بعدُ ملامحُه ،

صدري عريان

أو . . لا بأسَ . . سأرتحل الآن

سأمرُّ على أقرب خان

أبتاع خيولاً وخناجر . . لكنْ . . أين الأبناء؟!

ماريانا . . أين الأبناء الأبناء!!

- : عفواً سيدنا . . ماريانا عذراء .

الغجر عيونُ سوداء

أيد تشتدُّ على الخنجر كي تنحتَ عينًا سوداء

فيِ الصخر ، وتنحتَ وجها للفصل الخامس .

ماريانا تنسج ثوباً تصبغه بالدم

والدرب يضيق بسيل الأبناء

غنوا ساعات . . لكن الطفلَ المهدولَ الخصلات

غنى . . غنىً نفسَ الكلمات

فانهمرتْ أعينُهم فرحًا بالطفل الجِنّيِّ الصوت
نظروا في قلب الطفل فراعتْهم أقمارٌ خضراء
نامت في خيمة غجر مطوية
رقصوا . . لكن الغجريَّ المهدول الخصلات
راقص في الريح خناجر ملوية
احتضن الثورَ وخاصره واصطاد النجمَ بأنشوطة
غرناطة
غرناطة
من ألف تحلمُ بالطفل الغجريِّ القلب
تَتَشَهّى لو جاء وغني واحتضن الثور . .

(٢)

ماريانا ترسم نارًا في عين
تستلْهم من أرض النسيان تَنَفُّسَ بئرين
تغترف الألوان المسكوبة في العصر على أيدي الطرقات

زيتًا مخْضوبًا يمتزج بحبات العرق المخضوب
يتوهج بالماء المنسيِّ على طرف الفرشاة
بثلاثة ألفاظ غصت بالرعب
وزجاج الشباك المكسور الصارخ بالريح الثلجية
وأياد تمتد من الظلمة في الدرب
تعتصِر الشمعةَ، والريحُ المجنونةُ تعوي في
ليل الأرصفة السوداء:
فرناندو.. فرنادو.. فرناندو..

ماريانا تحتضن الثوب تواريه بين النهدين
في الدُّجْية إنسانٌ مجروح الجبهة
ترتعش بعينيه الأقمار
يتحسس آثار القيد الدامي فوق الرسغين
نادى مجروحَ الصوت حزينًا بمشارف غرناطة:
«ماريانا.. مِنْ غيرِ الضوء الثابت في

ليل الأعماق

منْ غير الأقمار الخضراء

منْ غير الأجراسِ الضاحكةِ بريح الحرية

مَنْ نحنُ؟! وماذا تُصبح في الليل ملامحُ غرناطة؟!

هل يصمد للحب الإنسان؟!».

ثلجُ ورياحُ تعوي في ليل الأرصفة السوداء

وأياد تمتد من الظلمة في الدرب

وتمزق أغنية هَاربةً بين النهدين

ماريانا تتكئ على بحر دماء

مارينا تصرخ: «يابدرو.. أهواك

ارفع قنديلَكَ.. من أجل القنديل أموت

بدرو.. يابدرو.. يابدرو..»

قمرٌ نهداه من القصدير
يمشي في شرفة غرناطة
يتلوّى، يشهق: ياطفلي القادم
هات الأقلامَ وأدركْ ثارات الأرصفة السوداء
بدرو مازال يخاصر ماريانا في ظل الموت . .

(٣)

نهدٌ غجريٌّ وامرأةٌ ترمي زيتونا في شفة البئر
ترتعش بعينيها أشجار السرو
يهتز الزنبق والخنجر فوق الزنّار
يمشي جبريل الطيب في ليل الأسبان
تتغنى الأجراسُ المسحورةُ «بالرومانسيرو جيتان»
والفصلُ الخامسُ أنسامٌ عَرَّتْ إمرأة غجرية
ترمي زيتونا في ماء البئر

فاغتسلَ الطفلُ السكران
وابتسم الشارع والكوكب والفجر
غرناطة
غرناطة
أرصفة دامية، غجرٌ في الساحة، أغنيةٌ
تمشي في الريح
فيديريكو . . فيديريكو . .

(٤)

آي هار لم . . آي هار لم
أغنيةُ السُّولْيا ترتاح على درجات حجرية
والعبدُ النائمُ يحمل فوق الزندين السلم
والعبدُ الآبق يحمل مصباحًا في مدخل ميناء مظلم
آي هار لم . . آي هار لم

أغنية السوليا تستسقي عينيْ غرناطة
والسوق السوداء وشارعُكَ الممتدُّ زيوتٌ
تحترق بأحشاء الأوثان

آي هار لم . . آي
عيناك شفاه تتدلى في بحر دماء
والملكُ الأسودُ بوابٌ يلتهم التبغ المجنون
والسوليا تصرخ : «ياقصر الحمراء
دعني أغترف قليلاً من ماء»
آي هار لم . . آي
الفهد الهارب من ليل الأحراش
يتوهج في دمه غاب الأبنوس
آي . . آي . .
أغنية السوليا ترتكز قوافيها الظامئةُ
على صمت البلور
تستسقي ريح الميناء

تنحلُّ غدائرها الخضراءُ تسيل على
أيدي الأوقيانوس
ترتعش وقد لاحتْ في الأفق أزقةُ غرناطة
غرناطــة
غرناطــة
أغنية السوليا قد عادتْ . . أوْحَشَها قصرُ الحمراء
دارتْ في القبو المنسيِّ لتبحث عن كأس من ماء . .

(٥)

ياعهد السنبلة الخضراء
أشرقْ من عينيْ أطفالٍ في رحم الثلج يغنون
واضحك ياصمت الريف المحزون
آياي. آياي
ياعهد السنبلة الخضراء

تلتفُّ بمسرحنا الدوّار كتائبُ قمصان سود

تقتتل شوارعُ غرناطة

تتعارك في الريح خناجرُ أسبان

أسبان - ياويلي - يسقون خناجرهم

من قلب الأسبان

القلعة يُغرقها الطوفانُ ومسرحنا تأكله النيران

أسبان - ياويلي - يدفنهم أسبان

والشارع يهتز بطوفان الحرس المدنيِّ الجوعان

غرناطـة

غرناطـة

يُمْطرُها زفتٌ مغليٌّ، يتوهج كبريت سدوم . .

كَفّنِّي ياركبَ الغجر المذعور

ادفنِّي في قلب الديجور

ضع صدري فوق الرمل ورأسي فوق القيثار

فيزنار . . فيزنار

أجسادٌ يطرحها موتُ ثلجيٌّ، آبار

فيزنار . . فيزنار

آياي

أسبان ـ ياويلي ـ يدفنهم في البئر الأسبان

والخنجر في قلب الشارع ،

والشارعُ بالثلج الأسود سكران

أسبانيا تأكلها الريح فتأكل أبناء الأسبان

آياي . . آياي

أسبانيا تغرق في النار

تنتحر ويأكلها موتٌ ثلجيٌّ الآبار

آياي فيزنار . .

فيزنار . . فيزنار . .

(٦)

ياضوءَ التاسع عشر من آب

ياشمس الصيف المشتعل الأهداب

صمتًا . . فالشاعر في صمت المحراب

كزهور عارية ، كالنجم السابح في الماء

يستلهم قرميد البئر المنسيٍّ بقصر الحمراء

يستلهم ساقية اللبن المسكوب وعهد

السنبلة الخضراء

يستلهم مصباح الدرب المرتعشَ

وأشجار الزيتون الصارخةَ الأوراق

صمتاً ياصيف الأعماق

فالشاعر مأخوذٌ . . يرثي أقمار القصدير

يبكي نهداً مقطوعًا يدمي في طبق البلور

ياضوء التاسع عشر من آب

ياشمس الصيف المشتعل الأهداب

صمتا . . فالشاعرُ معصوبُ العين . .

(٧)

غرناطـة
غرناطـة
تنحلُّ ضفائرُها السوداء
يوقظها قتلى فيزنار :
«قد مات وحيدكِ فيديريكو . .
لوركا مات
لوركا صرعتْه القمصان السود
لوركا . . لوركا . . لوركا قد مات»
فتولول حتى ينفجر النهدان
وتراقص حراس القمصان السود
تمضي والليل يُوَلِّي للحان
تذهلها الكأس فتصرخ :

«ياولدي

مجرمةٌ أمُّكَ غرناطة .»

تصرعها الخمر فتهذي :

«ياولدي

علَّقت يديك على الباب

قنديلاً في مرمى الضوء ينادي

صبيةَ غرناطة :

لوركا في الساحة أقمار

لوركا ديوان مسحورٌ يستنهض قتلى

فيزنار . .

في القصيدة إحالات وإشارات كثيرة من شعر لوركا ومأساة حياته وموته، وليس هدفي من القول أن أسجل مراحل حياة وحكاية موت فحسب، ولكنني دائما أجعل الموضوع الرئيسي للقصيدة تكأة أستند إليها لأقول ما أقول، راجيا أن تحمل الكلمات في طواياها غمغمة قلبي أنا، وليس الموضوع إلا منطلقا للإفضاء. «م.ع.» ١٩٦٢

تتـــويـــج

عيناه في سفري الأخير
محمرّتان تشفّيا
والوجهُ يطرح من عناقيد الكراهة،
ثم يضحك في اصفرار
شفتاه ترتعشان صمتًا وانكسار
وتُجالدان.. فلا تفوح روائحُ الجثث القديمة
من مقابرها الموطّأة الحجار
تتجلّدان.. فليس ينبش في ثلوجهما وداعٌ أو غياب
والوجهُ منطفئٌ تناهَشُه الضغينةُ والتودُّدُ والحوار
ويكادُ من سأم يفرُّ قبيل أن يأتي القطار
فتشده عينايَ، تمسكه بوارق الاحتضار
في صوتيَ المذبوحِ، في وجهي المضرَّجِ بالعذاب
وتشده - في العين - بارقةُ الهزيمة والفرار.
فتُحتْ يداهُ إليَّ فارتعشتْ بحلقي شوكة،
وسقطتُ بينهما حزينًا صامتا

نتخاطف القبلات . . أسمع صوتها الموءودَ صلبًا ميتًا
من بيننا سقطت على صمت الرصيف
جيف التواريخ القديمة . . فاستدرنا صامتين . .

***

هذا ابن قاتلتي يجيء إليَّ بالبشرى ،
يعلمني الفرار
عيناه منها خنجران
شفتاه من ترجيعها الليليِّ تُعشب بالأغان .
هذا ابن قاتلتي يغمغم في المساقي والخوابي والجرار
ويطير موالاً يغمغم في السواقي والشواديف المريضة
بالرؤى والإنتظار :
«خذ من كهوف النمل صوتًا أو صدى
خذ من جنون الطمي صوتا أو صدى
خذ من نبات النهر صوتًا أو صدى
ثم انتظرْ

جنِّيَّةً تأتيك من باب القمر . »

هذي أنا . . قد عدتُ من ليل الحفر
أحْييك ، أضْرِمُ فيك ـ بعد الثلج ـ نار . .

* * *

ماذا رأيتُ خلال نومي في القرار ! !
ما عدتُ أذكر غير أني متُّ من دار لدار
بمقابض الأبواب لحمي ،
في دهاليز الردى آثارُ أقدامي ،
وفي رئتيَّ عشبُ دمٍ ونار
فدخلتُ عرقًا من عروق الأرض . .
ياقمر الجليد
دَوَّختَني ودخلتَ بي أرض الجحيم
فنسيتُ – عبر مناجم الكبريت – عاري ،
وارتديتُ – خلال أرض الملح – عار

أحرقتَ حنجرتي وصوتي،

أخرستْني في كهوف الفحم شمس من رماد.

***

ماذا أريد

بحدائق الدم والجليد!!

ما عدتُ أذكر غير أني جئت عبر مناجم الأرض

السحيقة أخرسا

لأراك يابرقا رهيبًا دامسا

وأنام فوق صليبك الليليِّ مهجورا

لكي يغتالني قمر الجليد

وأظل مطروحا تمثِّل بي الرياح

وتصب شمس الأرض فوقي كل ما طَعِمْتِه من

جثث ورعب وانتظار

ما عدتُ أذكر غير أني جئت للأرض القديمة غازيا

في القلب أسفارُ الهزائم، خنجري بين الضلوع

***

تحت العباءة كان روح الأرض مستترا يدق

جلاجلَ اليأس المضاء

في المعبد الليلي حدثني حديثَ الأصفياء

صبت يداه نبيذه الأرضيَّ في كأسي،

وخَلَّفني وحيداً هاويا

في كل فج،

أخرسَ الكلمات،

موسوماً بشارات الفضائح والجنون

في ليل جمجمتي زهورُ الفحم والكبريت،

والقمرُ الجليديُّ الوحيد

تاجٌ على رأسي بمملكة الفصول الخرس والشجر العقيم..

١٩٦٥/١١/٢٣

العـرس العظـيم

يا جَبَلَ الشعر
طَيَّرْتَ ضفائرك الصخرية
فاختبأتْ فيها الشمسُ نهارًا بعد نهار
وانعقدتْ في جنبيك عروقُ الثلج
وانطفأتْ فوق السفح النار . .

* * *

في ليلة عرسك ياأيوب
سيحط على مئذنة الصيف
قمرٌ ثلجيٌّ مصلوب .

في ليلة عرسك يا أيوب
سيحط البوم على صفصاف الليل
ويطير الصقر الأسود في التَّبَّانة .
فتفر نجوم الليل،مرمَّدةً من غير مدار .

في ليلة عرسك يا أيوب
سيُساق إليك الهودج مطويا من غير عروس
ستُمدُّ إليكَ موائدُ لا يعمرُها غيرُ السوس
وسيرقص في محفلك جراد الصيف
وتموء القطط الليلية .

في ليلة عرسك يا أيوب
ستُزَفُّ وحيدا معصوبَ الرأس
وتفاجأ فوق سرير العرس
بالعتمة والصمت الثيب .

* * *

أيوب
مُطَّرحٌ تحت بروق مطفأة لا تثمر نارا أو موسيقى
تنغرس حوافر ليل قاس في جنبيه
يتحجَّر ليلُ الحب الأخرس في عينيه

فيمر وحيدا في الظلمات
يتحسس وجه الريف السابح في ردهات الصمت
ينتظر سقوط القنطرة الليلية
وهبوطَ الجسر إلى الأغوار .

أيـوب
طوّحه العالمُ في مشنقة الشمس
فانتظر - أمام البرزخ - أن يتقدم نحو الموت
أو يرجع مخضرًّ الرئتين
ممتلئا بالآيات الأرضية .

أيـوب
مرتعشٌ تحت عباءة موت لا يأخذه أو يبقيه
أمْرَضَهَ أن الشمس الأولى لم تتفجَّرْ في رحم الظلمات
أمرضه أن الشجر الوارف لم يتَهَدَّلْ بالأثمار

أمرضه أن الطينة شاختْ قبل النطفة والتكوين
فانتظر وحيدًا أن يصعقه برقُ العرس .

***

يا جبلَ الشِّعر
طَوَّحَني صمتُكَ في مشنقة الشمس
هجرتْني إيقاعاتُ النار
فانطفأتْ روحي في ثلج الأشعار
وركعتُ على قافية الرعب
فارحمني . .
طَوِّقْني بالصاعقة الثلجية
كي تُرضِع قلبي . . تأخذني ما بين يديها المزهرتين
فأنام . . ولا أستيقظ في الأبدية . .

١٩٦٥/٩/٢٤

عذراء الصمت .. والصمت

مروَّعتان عيناكِ

وغائمتان تهربُ فيهما الأشباح

وأنتِ وحيدةُ النهدين في الغرفة

تمر جدائلُ الأصداء بالشرفة

بصوت الأرض والإنسان . . ترتعدين من

خوفٍ ومن ألفة

تمر أصابعُ الليل الشتائية

تغمغم في رصيف الليل موسيقى جليدية

فيرتعد الحليب الحيُّ في نهديك . . تصرخ في

خصاص الباب همهمةٌ بدائية

وأنتِ وحيدةُ العينين في الظلماء منسية .

تَغَرَّبَ أهلك الفقراءُ في الليل

تطاردهم قناديل الشوارع والعيون الخرس والحرسُ

خناجرهم بقلب الريح تنغرس

وينحدرون في الظلماء

خناجرهم نُهَيْرُ دمٍ وأقمارُ

عباءتهم أساطيرُ

وجوعٌ أخضر العينين في الأصلاب محفورُ

ربابتهم تغني زهرة الأمطار

وينحدرون في إيقاع أغنيَّة

جلاجلُها تفجر في دمائهمُ الرؤي والرعبَ والأشعار . .

***

تَغَرَّبَ أهلُك الفقراءُ في الليلِ

ومن تل إلى تَلٍّ

تدور عيونهم في مسرب الأشباح

(تعالَوْا في خيامكم الدخانية

من الأطلال والآبار

بما في العالم السفليٍّ من عُمدٍ سديمية

واجراسٍ تصلصل بالدم المخطوف من
أطفالنا الزُّغْبِ
وأكفانٍ تغرغر بالدم الرطبِ
سنغرس في وجوهكم الرمادية
خناجرنا . .)

ومن تل إلى تلٍّ
تغرب أهلك الفقراء في الليل
وعاما بعد عام تذبل الكرمة
شهورا، ثم تخضرُّ
وهم - في الريح - لم تطفىء لهيبَ ظِمائهم خمرُ
بكائياتهُم غَرَسَتْ قوافيها بقلب الليل

تستسقيه بعض سحائب الرحمة .
(ويا إنسان

بقايا من خشاش الأرض أنت،
وشائه الخلقة
يطاردك العساكر والقناديل المسائية
فتضرب تائهًا من مهدك الثلجيِّ للَّحْدِ
دماؤك ليس تخضرُّ
وأرضُك لم تفجر ماءَها بئرُ
وطول الدهر لم تثمر شجيرات الدمِ
المغدورِ عنقوداً من الغضب
ولم تضرب بكائياتُك الخرساء نار الشِّعرِ
في الحطبِ
فمزِّق وجهك المجدور
فقد شنقتْكَ من عام إلى عامٍ..)

ومن عام إلى عامِ
يعود الموكب المقهور في الصبح

علي أكتافهم قتلاهم السُّمْرُ
تغطيهم عباءات تطرزها عصافيرُ الدم المسفوحْ
تحط على نواطير الشوارع والرصيف الصامت المهجور
عصافيرُ الدم المسفوح
تحط على الحواري الرطبة الجدران
عصافير الدم المسفوح
تحط على نوافذها المعتَّمة الزجاج وسقفها
المصبوغِ بالقطران
عصافير الدم المسفوح .

* * *

وفي عينيكِ حط الرعبُ والغيم
فتنتظرين . . تنتظرين صوتًا أو صدى يأتي
بما في البحر من سفنِ
بما في الموج من زرقة
بما في القاع من عشب ومن أحجار

وتنتظرين . . تنتظرين صوتا أو صدى يأتي
بما في الأرض من أشجارْ
بما في الأفرع الخضراء من زهر ومن أثمار
وتنتظرين . . تنتظرين صوتا أو صدى يأتي
بما في الريح من أمطار
وما في الطين من علق ومن عَفَنِ
وما في الصمت من نار تفجر ثديك المعمورَ باللبن . .

* * *

مُرَوَّعَةُ الضفائر أنت في الغرفة
وخلف الباب صوتٌ صارخ بالجوع والرعبِ

(أنا المتسول العريان
تركت دمي لما في الأرض من نُصُبِ
يطاردني العساكر والمصابيح الضبابية
فجئت مفزَّعًا . . قد خانني قلبي

خذي عني الجراب الفارغ المقطوع
هبيني كسرة من خبزك الأخضر
هبيني كوبة من مائك الدمويّ يعشب
لونها في أضلعي الجوفاء .)
فترتعدين من ركن إلى ركن
وصوتُ خطاه في الظلماء يبتعدُ . .

* * *

يدور الهمس من دار إلى دارِ
بأن فضيحةً تلتفُّ بالعار
تلف حبالها حول الرقاب . . فيصمت الآباء
وتنطفىء العيون السود في الأبناء
تجف قلوبهم شيئا فشيئا ثم تحترق
وتحترق الدماءُ ، تحط شمس الملح والصمت
ومن دار إلى دار
تفوح فضائح النسل الذي يأتي بلا قلب . .

* * *

لقد أحببتُ عينيكِ

وأحببت القناديل التي تهتز عبر شوارع الموتِ

ركعتُ العام بعد العام تحت مقاصل الصمت

وبعت دمي لأشرب قطرة من ماء نهديك

لتصعقني البروق الخضر . . تشنقني ضفائرك الإلهية

طرحت القلب تحت سنابك الليل

ومن وتر إلى وتر

تغمغم آهة الموال من وتر إلى وتر

تغرغر في نوافذك الزجاجية

وقد أحببت ـ حتى ـ الرعب

تفجر صدريَ المحروقُ بالغفران

لكل يد . . لأني كنت أطفح بالرؤى والحب

لأني كنت ممتلئا وجوعانا

ومستورا وعريانا

فجئت إليكِ من درب إلى دربِ

ولم أحمل معي قلبي

فقد أعطيته للحارس المنصوب في البابِ . .

* * *

خلال الأرض . . من باب إلى باب

وعبر نوافذ الطرقات والشرفات

يولول صوتها المخبول :

«خذوني في محفتكم إلى الشمسِ

لتربط في ضفائر شعريَ الليليِّ بعض

شرائط العرس

خذوا قلبي إلى القمر الذي يهتز في البركة

ليطبع فوق خديَ قُبْلَةَ البَركة

هبوني طفلة ضحَّاكة العينين أو طفلا

خذوني في سرير الريح

لأرجع من عذاب بكارتي حبلى

خذوا عني لهيب الطائر المحفور في صدري

لأنزف ما تحجره الرياح الخرس من لبني

أذيقوني عبير لفائف الأطفال
دعوا نهديَّ ينسكبا خلال حدائق النسل
ويا أبناء
تعالوا من ظلام البطن يا أبناء
لترحمني شفاهكم الإلهية
من اللبن الذي احْتبستْه في صدري
المصابيحُ الشتائية
تعالوا من ظلام البطن يا أبناء
خذوني في محفتكم إلى الشمس
لأشرب جرعة من غيمة النعمة . . »
يغيب عويلها يوما ، ويأتي ، ثم ينقطع
وتنقلها الدروب إلى الدروب تهيم في الطرقات
مفزَّعةً ، يولول صوتها المشبوح
تلاحقها كلاب الأرض عاويةً . . بلا رحمة . .

١٩٦٥/٢/٧

في أرض الموت

منظــــر قتــــل

منظــر قتــل

١ - الفتاة :

نزلتْ واغتسلتْ - ذات مساء صيفي - في قلب النهر

فانْهَدَلَتْ أشجارُ الصفصاف

سكبتْ خضرتَها في العينين الواسعتين

وانكسرتْ أسرارُ الكرمة في الشفتين

وانْعَقَدَ عصيرُ الشجر الطيب في النهدين

وحقول القمح تفضُّ سنابلَها في الصوت

وزهور اللَّبَخِ تحط حريرًا في غيطان

الزغب المشمس والأسرار

والطمي الذائب في طبق البلور

يتوهج بالألوان السبعة ، يثمر في الصيف الجسديِّ الأسمر

مفتتحًا صيفَ التكوين . .

٢ - الفتى :

اختبأتْ في الشال الأخضر

أسرابُ عصافيرٍ خضراء

وحدائق أقمارٍ سمراء .

وهبتْه نوافيرُ الأشعار

حنجرةً تضحك فيها النار

ويغني السنبل والأشجار .

وهبتْه الساقيةُ الخشبية

ترتيلةَ روح الأرض

فانسكبتْ من شفتيه مواويلاً أرضية

وانفجرتْ برقًا موسيقيا في المزمار .

تخضرُّ وتزهر في رئتيه جذورُ الجوع

تتهدل فاكهةُ الأصوات

بعصير الطمي ورعب النهر وحلم

الصاعقة المخضرّة في الإنسان . .

٣ - العاصفة. «أصوات» :

- : عيناكِ الواسعتان

بهوانٍ انفتحا في غابات الفضة والأقمار.

- : موالكَ رمحٌ يزحف في زغب النهدين

ويغمغم في بئر الأسرار

- : طفلتنا تزرع في عينيها شجر النار

- : قريتنا تأكل فاكهة الأحجار

كي ترضعنا رأس المسمار

- : داست أقدام الجبل على أقدام الشمس

فانطرحتْ تنزف فوق الأسطح والأسوار

- : العالم يفضحنا لو نهرب في المزمار

العالم يقتلنا لو ظلّلنا في الصهد جدار

والجبل تدلى في الآبار

جذران التحما في الأغوار

فالتمعت تحت سماء الصيف بروقُ العار..

٤ - صوت مذبوح:

جسد عريان

مقطوع الرأس، وحيد في أقبية الموت

تتغنى تحت أضالعه طعناتُ الخنجر والأحزان:

«يا قريتنا الواطئة الجدران

مدي قدميك العاريتين وخُوضي في

زلق القربان

واغترفي من جسدي الحنّاء

وانسكبي في أغوار الطعنة بعد الطعنة،

ردي ما يتردد تحت عباءة موتي من أصداء.

ياساقية الصيف المرتحل الأفياء

ماذا كسَّر في قادوس الخشب غناء الماء!!

صلصلةُ الموت انغرستْ في جنبيَّ

فضاعت قافيتي الذهبية
يا سرَّ الشمس الزغبية
دَفَنَتْكَ رياح العالم في صيف التكوين
واحترقت عينك تحت بروق العار . .

٥ - رحلة جسد الشاعر القتيل :

الجسد السابح في التيار

يرتعش على إيقاع الشمس وينصت للأغوار

طعناتُ الخنجر يعشب فيها الطمي ويسترها

ظل الأشجار .

الجسد السابح يرقص تحت جسور الليل

يتكسر في رئتيه الصَّدَفُ المعتم

والعشب الدوار

يتسلل عبر القنطرة الطينية ،

ينتظر جواد النار

كي يدخل في غابات الظلمة والأعراف

كي يدخل في قادوس الساقية السفلية

ويغني في أعراس الأرض

أغنية النار الأولى في أشجار الجوع . .

١٩٦٦/٢/٢٤

الغـــريـق

تلوى صوته الظمآن
خلال سحائب الألوان
فزلزل في طوايا الصدر أقبيتي الرمادية
وهز مدينتي الأرضية المطمورة الشرفات في الأعماق
وغمغم في دمي، وانسلَّ عبر حوائط الأحزان . .

* * *

يحط الصوت عبر نوافذ القلب الجليدية
عصافيرا من النيليِّ والبنيِّ والأصفر
يحط يمامةً خضراء
وخفاشًا من الفيروز والذهبِ
يدرو فراشةً زرقاء في دوَّامة اللهبِ
ويمرُق صارخًا بالرعب والطرب
فَيَدْفُق في دمي بتحول الألوان والأشياء . .

* * *

تلوى الصوت عبر نوافذي الأرضية البكماء

وحطتْ في دمي العنقاء

تفجِّر في دمي الشهب الغنائية

فأهرب في فجاج الريح

يمد جذورَه في القلب ما حُمِّلْتُ من أسرار . .

* * *

ترفرف في دمي العنقاء

وتحملني خلال جزائر الظلمة

فتشنقني النواقيس الخرافية

وتصلبني الفصول على صليب من عبير الأرض

فأهرب غائم العينين، تجرفني الرؤى،

وأغوص في التيار . .

* * *

أمر مفزَّع العينين عبر مدائن الأعماق

فأشهد فصلها الخامس

وأمرق عبر أرصفة من البلور

أرى أشجارها الصَّدَفية الأوراق

وأسمع في حدائقها مخاضَ الشمس في

رحم من الفسفور

أخوض خلال أعشاب من التّوتْياء

وأُفْرِغُ صدريَ المنخور مما فيه من ريح ومن أصداء

وأصمتُ صمتيَ الأبديَّ . . لا أطفو إلى العالم . .

١٩٦٥/٣/١٩

تحت السماء البيضاء

خطى عزْريلَ تقتربُ
تفحُّ بهاَ السنابل والفروعُ الخضر والقصبُ
يسيل بها احمرار الماء
وتضحك في بكائياتنا الخرساء
وفي قيثارة الأعراس تنتحب . .

خطى عزريل تقترب
وترقص في القناديلِ
تغمغم في المواويل
تطير تفجعًا . . يخضر في إيقاعها الطربُ
وترضعها الجذور، وفي ثمار العالم الأرضيِّ تنسكبُ
فتزفرها المداخن والمزاميرُ
وعزرائيلُ شيخٌ ضاحك العينين مسحورُ
تَبَسَّمَ في قناديل الشوارع،
وارتمى في الأرض أسفلنا وأسوارا

وشمسا في سقوف الريف
وزيتا في تروس النار
وأجسادا مضمَّخةً بما في الطمث من أسرار . .

خطى عزريل تقترب
أراه الآن يغسل خفه الذهبيَّ في السحب
ويغمزُ لي بعينيه المغامرتين في الحِقَبِ
ويُغويني بما في الليل من أقمار
وما في صيفه السفليِّ من ثمر ومن أطيار
فأهرب من حلاوة صوته المعتم
فيرقص ضاحكا في كل بوابة
يلوِّح لي بما في جيبه السحريِّ من سعفٍ
وزيتونٍ وأعنابِ
يطاردني، يقول :
«عروسُك السمراء في أرضي

متوَّجَةٌ على الغابات
وحفل زفافك الموعود مُحْتَبَسٌ بأبوابي
وطفلك سوف يولد عبر أعتابي . »
فأهرب في حَرور الصهد منقسمًا على نفسي
تَغَلْغَلُ في دمي السرجُ الشتائية
وقلبي بالتشهِّي والنبيذ المرِّ يشتعلُ . .

أتيتك جائعا تحت الكروم وظامئا في موسم الأمطار
تخوَّفْتُ الجسورَ وفزَّعتني ظلمةُ الآبار
وخفت خيانة الأشياء والأثمار
وقد ضاقتْ - بما رَحُبَتْ - عليَّ الأرض يا أمي
فجئتك جائعا لروائح الثوب
وظمآنًا لما أبقيت في ثدييك من لبن . .

خذيني الآن في بوابة الفيضان

لأمرق عبر حلْمة ثديك الرحمن
فأدخل فيه مغتسلا من الأرض
ومرتحلا من الخَرَسِ الرهيب ومحفل الصخب
إلي الصوت المقدس من نوافير الحليب،
وأغنيات العالم المنسيِّ في القلب . .

خذيني الآن في بوابة الفيضان
لأدخل في الربيع الأبيض المغروس بين العرق والعرْقِ
فأرقص في ابْيضاض الريح والبرق
لأنسى ما تحجَّر من لغات الأرض في رئتي
وأمشي في الحقول البيض أملأ من جداولها
وغرينها المقدس ليل جمجمتي
وأركض في قرار النبع أقطف زهرة اللبن
فيُسكرني عصير الشمس وهي تطير تحت سمائها البيضاء . .

١٩٦٥/١٠/٢٥

مذكرات إبريق
١٩٦٥

- ١ -

تُرى . . من أيِّ جرح ينزف القمرُ!

وهذا الليل والإنسان والسفر

أرادوا بعض ماء من سواقيه ، فيتكئ

بمرفقه على جميزة الأفقِ

ويُخرج نهده المقطوعَ في طبق

ويعصره ، ويسكب ماءه بحدائق الأرض

فأملأ جوفيَ الضمآن

- أنا إبريق هذا العالم الأرضي - أملأ جوفيَ الظمآن

وعند مداخل الدنيا الترابية

أدسُّ يدي بخاصرتي وأنتظر

فتأتي حيَّةُ الأرض

لتشرب جرعة . . فتصبّ سم الأرض في جوفي . .

* * *

وهذا فارسٌ في الليل ينسلُّ
علي صدغيه بعض دم وفوق جبينه ظل
من الطعن الرهيب وصرخة السيف
من القتلى، من اللحم الذي لن ينبت الأحلام
وجاء الآن . . جاء الآن . .
ليشرب جرعةً من مائيَ الصافي
وأسقيه
فتلعق نابها الحية
وفي أعماق هذا العالم السفلي تنسرب . .

- ٢ -

وتحت الليل جاء اثنان
وفي صدريهما طيران ينتفضان
وفي رئتيهما جرح عميق ينزف الخضرة

- : سنهرب هذه الليلة

- : سنهرب حينما نستأذن الموتا

ونمرق فوق قنطرة الرؤى للطينة الأولى

نشم عبيرها فنجوس في الأحلام

تراقصنا الرياح ونعرف الصمتا

- : وسوف نذوق طعم الحنطة الأولى

- : سنمرق مرة أخرى من البوابة الخضراء

نقبِّلُ هذه الطرق الترابية

وقد أنصتُّ للقبلات وهي تطير من غُلٍّ إلى غُلٍّ

-أنا إبريق هذا العالم الأرضي - قد أنصتُّ للَّيلِ

يفجر نهره المعتم

فتشتعل الرؤى السوداء والخضراء

- : «تعاليْ . . هاهو الإبريق في بوابة الأرض»

فأسقيه عصير الخوف والظلمة

فيمتلئ السكون المعتم العينين بالأجراس

- : «سنهرب ليلة أخري

تعاليْ . . قد تمر الآن كوكبة من الحراس

وقد تغتالنا الأيدي التي تمتد في الظلمة

وقد تهوي بنا – من فوق قنطرة الرؤى – الريحُ»

- ٣ -

وجاء اثنان من بوابة الليل :

عجوزٌ لم تعد أنثى ، وشيخ أطفأتْ أيامَه الطرقات

رأيتهما كمزمارين مكسورين في الريح

سمعتُها نداءً ضائعًا في الأرض والظلمة

يقول لها : تَسَوَّلْنا طوال اليوم فاستعصتْ علي

أفواهنا اللقمة

تقول له : ولم أعثرْ على ولدٍ يطاوعني

ويترك دارَه ويفر من أبويه ، يتبعني

ليصبح في مغيب الأرض تعويذة

ليضرب صوتُه في الصدر عرقًا يسكب اللبنا

يقول: أجل. . تسولنا وطالت في عيون الخلق غربتنا

وهاجرنا بلا فيء ولا خضرة

أحس دمي - أنا إبريق هذا العالم الأرضي - يرتعش

أشم روائح الطاعون

أحس مجاعة في الأرض تأكل طفلها الإنسان

فأسكب من دمي كأسًا لشحاذين ينتفضان

تسيل خلال عظم الشيخ ماءً معشبًا،

ويظهره نسلاً بلا أسماء

وتضرب فخذها بالطمث، تملأ صدرها لبنًا

- : «سأرجع، ربما ألقى صغيرًا ضائعًا في الليل يتبعني

- : تعاليْ. . ربما نلقاه

- : لقد أغْوَيْتني يومًا بما في عودك الصخريِّ من أبناء

فدعني الآن يا تعويذةً لا تنبت الرحمة . »
وعاد الشيخ يبكي وحده ويجوس في الظلمة . .

- ٤ -

صبيٌّ أخضرُ العينين في الظلماء يحتضر
تشق جدارَ غرفته الرؤى ، يتحدث الجميز والتوت
وتمرق عبر مَنْوَرِها العفاريتُ
يذيبون السواد الصلب في القارورة الخضراء
ويفترشون في جنبيه صوتًا غاله الصمتُ
فيغتسل الصبي بمائه الثلجيِّ ، يسمع آخر الأصداء
ويختطفونه في الصمت . . يرتحلون تحت هوادج
الصفصاف
يهيلون التراب عليه في جبانة الصمت
وقد أحسست بالموت

– أنا إبريق هذا العالم الأرضي – قد أحسست بالموت
يريق عصيره الدمويَّ في الصفصاف
أرى الدنيا يزلزل سقفَها طاغوتُه الطوَّاف
يدق بها خناجره الرمادية
ويسحب صوته في الريح، يغرس رمحه في روحها الصماء
يراقصها وينهش نهدها ويغوص في الرحم الجليدية
ويشعل صدرها شمسًا من التعتيم والدخَّان
وقد أحسست بالأشجار
– أنا إبريق هذا العالم الأرضي ـ قد أحسست بالأشجار
تمصُّ من الثري ملحًا رهيبًا أخضر الرعب

* * *

أقمتُ العام بعد العام فوق الشاهد المهجور
أرمِّمُ ما تهدُّ الريحُ من جبانة الطفل
أواري وجهه المتآكل المطروح تحت الشمس في ظلي

ألاطف أوجه الغرباء

وأسقيهم إذا التفَّتْ على أعناقهم أنشوطةُ الصَّهْدِ

أمد يديَّ أحجب عنهم الشمس الجليدية

وأطعمهم ثمار الصيف كي يسترحموا الأمطارَ

أو يستمطروا الرحمة

أراقصهم إذا جاءوا مع الظلمة

وأذهلهم . . فيستسقون عصر النار . .

* * *

أرى الغرباء ينزلقون في الطرق

بأعينهم فجائعُ عالمٍ زَلَقِ

يطاردهم غرابُ الأرض حتى يركعوا تعبًا بمفترق

فينحدورن من رعب إلى رعب إلى رعب

وينفجرون في دوامة الضحك الغريب الطعم والهرب

وينطفئون فوق أسرة الأفخاذ والعرق

ويقتتلون من شبق

ألا طفهم فيكتئبون
ويشتعلون تحت صواعق التعب
أمد يديَّ أحجب عنهم الشمس الجليدية
فتأكل ساعدي الريحُ
يُدَحْرِجني غرابُ الأرض في جبانة الطفل
فأبدأ هجرتي في الطين منكفئًا على ظلي . .

- ٥ -

بقلب الأرض أسمع أميَ الحبلى
تقول : صغيرنا قد كان مَهْرَ الزيجة الأولى
فكم ضمتْه بين مراشف التفاح حواءُ
تقول : صغيرنا قد كان نصلاً في يديْ قابيل
وآنيةً يسيل بها الدم المغدور
تقول : صغيرنا قد كان بابًا سال من أعتابه الطوفان

وكان القبرَ والغيطان والإنسان
تَغَرَّب ساعةً فأضاع في الأحقاب سر الصمت . .

* * *

أنا إبريق هذا العالم الأرضي . . ينهشني غرابُ المقت
أنا أنشق عن أهلي
وأهرب في هجير حط في عقلي
أغامر في فجاج اليأس منسلخًا من الظل
أفتِّت صورتي ، وأهد كل ملامحي وأغوص في
الإعصار أبحث عن براءة قلبيَ الأولى
وأسقي جيليَ المتسول العريان
فينشب في عقولهم الجنونُ أظافرَ الإعصار
أراقصهم فيبتهلون لليأس
وأغرس خنجراً من رمزيَ المعجون من ثلج ومن شمس
بطينتهم ، فيقتتلون من طرب . .

- ٦ -

سأبدأ رحلتي محمرةً عيناي منطفئًا وظمآنا

أنا إبريق هذا العالم الأرضي قد أصغيتُ للريحِ

تغمغم في صحائفها التي انطمست فجيعةُ صمتيَ

المشنوق في أرض التباريح

أواري عورتي وفضيحة الأبوين فوق مضاجع الطمث

أقوم الآن بين فضائحي وأسير عريانًا . .

* * *

رأيتُ الأرض ماطابتْ بها أثمار

ولا غنتْ على تابوتها أطيار

أنا إبريق هذا العالم الأرضي قد أصغيت للريح

تغني نفس غنوتها

تغني نفس غنوتها
فما أسرارُ أني قد وُهِبْتُ السمع؟!!

* * *

أرى ولداً غـريب العين شـاب الرأس منه، اندسَّ في الظلمة

أتى.. خطواتهُ شبحيةٌ.. يتأمل الطرقات
يُخالسُ وجهيَ النظرات
يجيء إليَّ.. يسرقني
ويحضن وجهيَ المطموسَ بين يديه، يخطفني
ويسرع بي من الظلمات للظلمات
فأسمع قلبه المذعور يبكيني
وفي أنفاسه الملوية الإيقاع يرثيني
أكابدُ ثلج رسغيه
وأنظر بين عينيه
رحيلاً لم يزل في طينة المجهول يدعوني..

١٩٦٥

من حوارات الصاعقة الخضراء

حســـن وجليــلة

خلال دمي توَهَّجَ وجهُكِ الزهْريُّ وارتعشتْ

عروق الطمي بالعشب

وفَجَّرني عبيرُك طحلبًا ومواسما تهتز تحت عباءة النبت

وموسيقى أراقتْ ماءها الصيفيَّ في قلبي

لتبنت في سواقي الشعر والأحزان سروةُ

عامي العشرين

وفي عينيكِ من جميزتي ظلٌّ، ومن تاريخها

دوّامةُ الصمت.

دعيني ساعةً في فيئك المطلول يا جميزة الخصب

فإني قطرةٌ من مائك المدفون بين ترائب

الميلاد والموت

أراكِ الآن يانافورة الأطيار والأحلام

يسيل الشعر من نهديك طفلاً راقصًا

وصواعقًا مجنونة العينين.

ـ: سأهرب منك، إن أبي خلال تغيبي قد مات

ـ : أبوكَ أنا، وأَمكَ، والذي يأتي، وما قد فات

ـ : سأهرب منك يا أنشوطتي الخضراء

أخاف فضيحتي وتحيُّر الولد الذي يأتي

بما في عينه السوداء من تاريخيَ المشبوح

أريق دمي وأسكب فيه ما يعتادني من

صوتك المذبوح

سأهرب منك يا مسمومة النهدين

أحاورُ عتمة المصباح.

ـ : أبوكَ أنا وأمكَ والدمُ المسفوحُ والمصباح

ستذهب ساعةً وتعود تسألني

عن الولد الذي انتظرته عيناكا

وغنيناه من أشعارك الخضراء رؤياكا.

ـ : أنا؟ لا. . لا أعود إليك قبل تغيُّر الفَلَك

سأترك نسلَكِ المسمومَ للدنيا الرمادية

سأنتظر الصراخ الهالع المجنون في الطرقات
لأني لن أرى عينيه
ولا أتحمل المسكوب من نهديك في جنبيْه
فماؤكِ لم يزل ينصبُّ عبر ترائب الميلاد والموت .

هبيني ساعةً لأفرَّ قبل مشيبنا المدفون في اللحم
هبيني ساعة لأراكِ بين الليل والحلم
لأهرم ساعة وأموتَ من يأسي
وأفرح ساعة وأقوم من موتي
ففي عينيك دنيا أغْلقتْ والتفَّتْ اللذاتُ بالرعب
دعيني ساعة لأعود للجميزة الخضراء
فإن أبي الذي قد مات لم يدفن .

ـ : ونحن . . ألم نغافلْ موتنا لنعود في الليل

بما في رعشة الجسديْن من طفل؟!

ـ : أخاف فضيحة الميلاد قبل شعائر الدفن

أخاف خديعة الأطفال في الدنيا الرمادية

أخافكِ يا طريق اللحم واللذات والجبن

وأخشى ماءَكِ السيالَ في الأنشوطة السوداء .

* * *

هجرتُكِ ليلة لم ينسربْ في جوفها قمرُ

ولم تتراكض الأشباح

أحاور عتمة المصباح

فينسكب الصدى المعجون بالظلمة :

«سترجع لي

لأني لم أزل بسريريَ الدمويِّ أنتظرُ

لأن العشب والأقمار من نهديَّ تنفجر

سترجع لي . . »

وأسرع . . آه لو ألقاكم الآنا
أيا أصحاب . . لو أبكي على أكتافكم ما اعتادني
من صوتها المذبوح !!
فقد تمضون بي لمدافن القرية
لأدفن والدي المطروح
وأسأله عن الكفران بالجميز غفرانا

جليلةٌ لم تزل خمرًا وريحانًا
ومقصلةٌ من الأصدقاء والأحلام
جليلةُ . . آه لو قَطَّعتُ نهديها قبيل رحيليَ المجنون
ولو أبكي رؤى من عالمي المسجون
بعينيها . . فسوف تروْنني من أعمق الجرح
أناديكم وأضــرع . . آه لو تُلْقـونني في مطلع السلـم
سأطرق بابها وأقول : معذرةً
فقد خانتنيَ الصدفة

وأعرفُ أنها ستشدني وتغوص بي في دهشة الأحلام.

* * *

جليلة!! هاأنا في الليل تحت حدائق الأصداء.

أحاور.. لا أرى إلاك في قلبي.

وأسمع صوتَكِ المغسولَ في العشب

يحاورني.. فترقص حوليَ الأشباح

ومن نهديك يصعد كوكبي الأخضر

تعالي واشربي من نهدها المعمور يا جميزة الخصب

ومدي جذرك الظمآنَ،

واسقي طيرك المسحور بالأقداح

تعاليْ يا جليلةُ واسكبي نهديك في جرحي..

١٣/٣/١٩٦٤

ملك الأمطـــــار

ملكُ الأمطارْ

طفلٌ أشيب

عيناه تكحَّلتا بالعسل الأسود والأسرار

وابتلَّتْ في شفتيه الشمسُ نهارًا بعد نهار

واخْـضَـرَّتْ – من قـدمـيـه العـاريتين – وأعـشـبت الأحجار . .

ملك الأمطار

يطوي في كفيه مظلتَه الخضراء

ويهش على أغنام الصيف بفرع من صفصاف

ينكفىء على قنوات الطمي ويشرب وجه الشمس السابح في التيار

ويُجَمِّعُ في رئتيه عبير الأرض . .

ملك الأمطار

يتسلل عبر حقول العالم
يتسمَّع صوتَ القش الراقص فوق خرير الماء
وغناءَ الألوان القزحية وهي تغمغم في الأثمار . .

ملك الأمطار
يهتز على إيقاع السعف النافخ في المزمار
وينام ويحلم بالسحب بالدكناء
وعروش الريح ومملكة البرية . .

ملك الأمطار
يملأ جيب عباءته بالقمح
وزبيب الكرمة والزيتون
حتي تألفه الأطيار
وتعشش في الشعر المبتل
وتعود إليه شتاء بعد شتاء . .

يا ملك الأمطار

هبني شارتك الفضية

خذني في حاشية الريح وعَمِّدْني جنديا في البرية

علمني أسرار الماء . .

نصِّبْني في أعراسك عازفَ قيثار

وامسحْني بالزيت الطيب واغسل قلبي . .

١٩٦٥/٤/٢١

حمدون القصار

ياويلي من نهر الليل
ينفجر رمادًا في شريان العالم
ينسكب خلال حدائقه الجرداء
ويدس الطميَ القاتل في رحم الأحياء
ينحدر ويهدم كل جدار ثم يقيم الموتى،
ينشرهم في وجه الأرض بلا أكفان.

الويل الويل
من شجر ينبت في النيران
ويعشش فيه البوم الأخضرُ والغربان
ويحط عليه سحابُ النمل.

* * *

في ملْقى طرقات العالم كانت بائعة التفاح
وجها قمريا، صوتًا مخمور الإيقاع
يتلبَّدُ في ظُلَمِ الأسماع

ويفجر في أبناء الأرض ينابيعا دموية
يتراكض في ظلمات الصدر خيولاً شَهَوِيَّة
فتحمحم، تغرس حافرها المشتعل بَغوْر القلب
وتميدُ سقوف شربت مطر الصمت تغطت بالأقمار
فتحط شموس الرعب
ويفيض النهر ويرمي فوق الجسر زهور الموت.

* * *

أبناء العالم يرتعشون
يتلهَّب فيهم ظمأ مجنون
يتكسر فيهم جوع مسنون
فيفر الجيل وراء الجيل ويندفعون إلى التيار
يسقيهم نهر الموت ويطعمهم شجر الزقوم
ويسيل عصير العالم في الثدي المسموم
يندفق خلال عروق الطفل فيهرم في شفتيه الشعر
ينعقد ثمارا جبلية

تتفجر حلاوتها في قلب البشم الضاحك والمحروم
فيفتت وجه العالم ليلٌ يركض في عينيه نهار.

* * *

هذا الإنسان الثرثار
مجدورُ الوجه ثقيل الشفتين
يتحدث منه دثارُ فوق دثار
فتقول عباءته خطبا ومواعظ كونية
تتفجر منه المِزَقُ التحتية
ثرثرةً ملأى بالأخطاء النحوية
وأنا مطروحٌ تجرف قلبي النار..

* * *

تجرفني النار
يَتَهَزَّمُ صوتٌ في الأغوار
يطردني عبر مهالك نفسي،
يدخل بي مملكة الصمت

يسلخني مني، يتركني عريانا تحت الريح
يكشفني عني، يفضح ما قدمت وما أبقيت
فتجف دمائي رعبا من شارات العار
وأواري وجهي. كم قَضَّيْتُ زماني في الأسفار
منكشفَ العورة تحت الشمس!!
فأكلت رغيفَ الصدقة، واستلقيتُ على أرصفة المقت
والويل الويل الويل
لو خانتْ جسدي العاري عينُ الليل
فانسكبتْ روحي – عبر الجرح – رماداً
لا يخضر ولا تحمله الريح..

* * *

سأجيء إليكم عبر مهالك نفسي في أردية الليل
منهزمًا، في عيني الدمعةُ والتغريبة
مُطَّرِحًا جسدي في الأسواق، ومغتسلاً في
مطر الكمد الأعلى والنسيان.

* * *

يا أبنائي
كسرتْني تحت سنابكها نفسي الأمَّارةُ بالأشعار
فضحتْني شمس العصر الأقتم ياأبنائي
وتخبط قلبي في اللغة الإنسية
يا أبنائي
لو حملتْ أوْجُهُكُم لوني أو غمغم صوتي
الأجرب في معزفكم بالموسيقى
فاطِّرحُوا جسدي تحت سقيفة هذا
العالم كي ينهار . .

٥/١٠/١٩٦٥

الوجه الهارب

جُنِنْتُ إليكَ وانتظرتُكَ تحت لفائف الميلاد غرغرةُ
الطفولة كلَّ مُنْعَطَفٍ من الجوع
وفوق أسرَّةٍ من رعبي المسقيِّ بالصخب
لأني كنت تحت سنابك الميلاد مرميا بلا أبوين
ومنطرحا على أرض بلاثديين
ومنطفئا تمزقني الرياحُ، تسوقني
بالرعب من باب إلى باب.

* * *

جننتُ إليكَ يوم تفتحتْ عيناي في أرض بلا شمس
وحين تهدَّلَتْ جُمَّيْزَةُ الظلمة
وألقتْ في دمي بعصيرها الشبحيِّ حتى
أثقلتْني بالرؤى والخوف والصمت
وأسكرني زفيفُ الريح بالمقت
فلم أحلم بغير ربيعيَ المخضرِّ فوق شواطئ الموت.
على شفتيَّ تنكسر الحروفُ،

تطير غمغمةُ التوجع دونما صوت

وفي جنبيَّ تنطفئ البشاراتُ

وتنغرس الخناجر والنبوءاتُ

فأسرع في رياح الأرض . . علَّكَ من

زفيف الريح ترحمني

يتيمٌ قلبيَ المصلوبُ فوق مقاصل الزمن

جننت إليك يوما بعد يوم كي تمد إليَّ

ثديا طافحا بالعشب واللبنِ

لتأخذني إلى آبارك الخضراء

وتغسل في خفايا الأرض مُضْغَةَ قلبيَ السوداء

ومن ماء القداسة والرؤى والحب ترضعني.

* * *

جننت إليك يا وجهًا من الظلماء

ومن قمر الجسور ورعشة الأعشاب في النهرِ

مددتُ إليكَ صدرا مثقلاً بسنابل الفجر

لتأخذني خلال ضفائر الشعر
وتسقيَني عصير الطحلب القمريّ والشِّعر
وتُسمعني غناءَ البحر والجميز والحنطة
فأسرع في انتصاف الليل يا وجهًا
يطير خلال أغنية من المطر
ويضحك في عروق الأرض من بئر إلى بئر
ويرقص في دم الأشجار
فأحلم بالربيع الطيب المفروش في عينيك ياوجهًا
يمر إليَّ عبر قناطر العالم
بموسيقى النبوة والعناقيد الإلهية
فترعبك الربابات الجليدية
وتهرب . . آهةً في صُلْبِ مرثيَّة .

* * *

وتحت العالم الأرضيِّ . . في السجن
تمر جدائل الأصوات عبر حوائط القرميد

غناءً طافحَ الترجيع بالحزن
وممدودَ القوافي تحت مقصلة من الطرب
فأسمع قهقهات الجوع
وأسمع صرخة الأيتام من درب إلى درب
تغرغر في دمي بخرافة الحطب
وفصل النار،
تَسْتَسْقِي الكواكبَ والرياحَ الخرس والأنهار
وتحلم في دمي بجزائر القمر.

تمر جدائلُ الأصوات عبر حوائط القرميد
فتبتهل البكائياتُ للجسر العريض وموسم الغبطة
وتصرخ في انتصاف الليل علَّكَ - أيها الوجه المقدسُ -
تُنْبِتُ الحنطة
وتُنضجُ في ظلام البيض أسرابا من الأطيار..
أجَنُّ إليك ياوجهاً تكحل بالرياح الخضر والأزهار

وعَصَّرَ في الشفاه مشاعل الأقمار
أجن إليك عاما بعد عام . . ربما تنشق
عنكَ حوائط الزنزانة الرطبة . .

* * *

أتيتُ إليكَ من سفر إلى سفر
تركت جواديَ المهزولَ فوق قناطر القرية
وجئت إليك مرتعشا خلال شوارع المدن
ركبت عواصف الطرقات واستلقيت في السفن
وأعرف أن عينيك المغرغرتين بالرحمة
ستمتلئان بالقمر المجنَّحِ آخرَ الصيفِ
وتنسكبان في ضعفي
وأعرف أن عينيكَ المغمغتين باللغة الإلهية
ستخضران . . تخضران حتي يورق العالم
وأنكَ - أيها الوجه المقدس - من
رياح الليل تحرسني

ومن موت الفجاءة في ظلام الليل تحميني.

* * *

أكاد أراكَ في العتمة

وخلف نوافذ البلور

أكاد أراكَ فوق المقعد المخفيِّ في كل

القطارات التي تأتي من المجهول أو تمضي

وأسمع صوتك الفضي

يصلصل في عروق الأرض حتى يورق العالم..

١٨/٤/١٩٦٥

يتحدث الطمي

«قصائد من الخرافة الشعبية»

● مائدة●

لفائفُهم، وترابُ الظهيرة، والزيتُ فوق الجباه
وشيءٌ بأوصالهم يتنفس إعياؤه، تعب، وطريق
تموت على جانبيه الظلال، يطول ويقصر حتى ارتموا
بالوصيد
تنادوا:

«إلينا بكسرة خبز ودورق ماءٍ وهيا
أعدوا طعام العشاء
مزيدا من اللحم والفاكهة
فإن صباح المدينة عيد..»

وفاح من الدور عطر الشواء

ومدت موائدهم . .

رقصوا لصليل الصِّحاف ومدوا يديهم . .

فروَّعهم أن لحم القدور

تفجَّع ، أنشب إيقاع صرخته في الصدور

رأوا في الصحاف عيونا تحدق ، في الصمت تبكى ،

وينهمر الدمع منها ، تدور

محيَّرةً، سمعوا صرخة ذكرتهم بأصوات أطفالهم . .

١٩٦٢

• بهـلوان •

أنا بهلوانُ الحقول

تعلمت أرجوزة الموت في صمتها والغناء

بجيبي صكوكُ الشياطين، في القلب جوع الرحيل

أنا زارع السمسم المرفّوق النخيل

بنيتُ السواقي التي تُرجع الماء للنهر،

قطّعت لحمي الترابيَّ (لحمي بحانوتكم لا يباع)

سأحكي لكم قصة من حقول الرضاع

تلهّت بها صبية شائخون، وأضحكتُ منها الحواكيرَ،

فجّرت دمع العيون

فعذرا إذا خانني اللفظ فانشق صدري
سروراً، وخلّعْتُ رجلي من الرقص،
مزّقْتُ قلبي صراخا، ومرغت وجهي على حفنة من
تراب البكاء.
أنا بهلوان الحقول
تذوّقْتُ - في بركة الطين والأرز - أحبولة الاغتيال
وفي السجن تبرق شمس الخيانة،
شمسُ البَغاء تغني لها الأوجه الخرسُ،
تبكي اشتهاءً لها أعين الطيبين..
تغرّبْتُ عبر البلاد الوسيعة.. أسرعت من
آخر الأرض، في كل شبر من الأرض
والماء كانت سفينة
بطول السنين التي تُنبت السفلسَ المستكنَّ المميت
لها ألف قلع وفيها ألوف الرجال
وقد أسلموها من الرعب..

شقَّت بها الماءَ ضفدعةٌ، ثم ولوْا عليها

- من اليأس - هرّاً ضريرا، ودفتها أسلموها

إلى بومة مفزعة

ومدوا اليد، احتلبوا النسوةَ الزانيات . .

١٩٦٢/٧/٢٢

زيــارة

على قدم من النيران قد حجَلتْ لنا الشمسُ

خلال عظامنا يتمزق الهمس

ونحن نبيت في الطرقات . . تومئ أوجه خرس

فتنهمر الحكايا السود في «الرملة»

فنعرف أن بعض رجالنا صلبوا

على فــرعين من سَنْطٍ ، وكــانت روحــهـم في الظهــر تنسكب

ونسوتنا على الطرقات ماءٌ أسود في الدور ينسرب

جدائلهن من ليف ومن حلفاء،

يصرخ في حناجرهن صوت ربابة طينية،

ينشقُّ عن أحزانه وحفيفه القصبُ

وينعقد التراب عصابة، تلتف، نخرج حلقة غبشية

بنعوشنا، ويمر بين نعالنا الأطفال

بأعينهم قناديل مكسرةٌ، وفي أصواتهم صيف ومئذنةٌ

تكفكف من رماد القلب

وحين يحط فوق القرية الليلُ

وتفتح بابه الأشباحُ.. تندفق الرؤى وتطير

عبر حوائط الدور

تُساقط طيرها وعجائبَ الثمرات والأصوات

وينبُت في حدائقها ترابُ الشمس..

يلتفُّ الصغار السمر، يرتعدون من خوف ومن ألفة

تميل رؤوسهم، ويقال: موتانا

خلال الليل ينسربون أشباحا، ويقتربون من نيراننا،

يتشمَّمون الماء والقهوة

ويضحكهم نباحُ كلابهم، يمشون بين الدور،

يفترشون ماء البئر، يستلْقون بين سواعد النسوة

ويرتحلون قبل الفجر فوق النخل والليمون. .

١٩٦٣

انتظار

-: ويا ضيفنا.. أيها الأخضر الوجه والصوت..

أقبِلْ إلينا،

فما زال في الأرض من ريحك الطيب

وفينا عروقٌ انتظار

وفي القمح من صوتك الخصب عرق اخضرار

تحدث إلينا عن الطمي واحضن صغارك،

علمهم الرقص..

قل أيها الضيف.. من أى أرض أتيت، وفي أي

ريح تكلمت في أي ماء!!

-: أنا طائر القمح والطمي. . بيتي أنين السواقي

وقد خَمَّت الأرضُ بالمنشدين

أهاجر في الصبح، حتى إذا الليل جاء

تطوَّحت في غربتي وانسللت من الأرض. .

-: كنا نراك

مع الليل ضوءا وظلمة

ونسمع صمتك أرضا تغني

ونسمع صوتك ولولة في المواويل

-: من غربتي جئت بالسيف حتى يرا

أداوي به الأرض من دائها البربري

ويا للفدادين من جوعها وانتظا

-: تكلم. . ففي صوتك الرحب

-: ولن أبرح الأرض. .

ساقية بين جنبيَّ

في ليلة العرس لي رقصةٌ وعروسٌ من الطمي
والقمح . .

تطوي يديها على صدرها في حياء
أغني لها . . وتغني السواقي . .

١٩٦٤

بكائية

أنا عصفورك المغرورق العينين يا شمس
أطير ببُردة صيفية الحنّاء
وأنفض في عشاش الضوء أثمارا من العرق
ومن إيقاعك الكوني يسرح في دمي جرس
فيحلم كوكب الأعشاب في قلبي . .
وأمي غالها الصقر
وحطت بومة الأحزان في الأشجار .

وطارت قبلة دموية الإيقاع في الأفق
أبي قد جاء بالزوج الجديدة . . آه يا أمي

وزوج أبي تطاردني
تقول: غدا سيأكل وجهك الصقر
ألوذ بها فتذبحني
تقدمني وليمة طفلها الأول
وأختي لم تزل في عشها الشوكي تبكيني
تلملم ما يساقطه أبي الجوعان من عظمي
فأبكي.. آه يا أختاه
ضعيني تحت آنية من الفخّار
لعل الشمس ترحمني
لعل الشمس ترجعني خلال الطين للأشجار..

١٩٦٤

شجرة الأسلاف

دفنّا في جذور التوت موتانا

وعدنا . .

نملأ الأفران دخّانا

لينتظر الصغار فطائر العيد

وينتظر الكبار مواسم الأمطار ،

يخرج صبية القرية

ويلتفون حول جنينة التوت

«تسلقْ واضرب الفرعين بالأقدام

فهذا توتنا الأبيض

يمد جذوره ويمص ما بصدور موتانا

ويشرب ما بأثداء النساء السمر من لبن

وهذا توتنا الأحمر

يمص دماء قتلانا

وهذا توتنا الأخضر

يمد جذوره بسواعد الأطفال . »

ويا شمس الفروع الخضر غطينا

وضمينا سوارا من حميم الطين في رسغيك ،

واسقينا ، وصبينا عصيرا في جذور التوت . .

١٩٦٤

غنــاء

بزاوية من الدار

يحط الصمت فوق إناء فخّار

ويأخذه النعاس البارد الخفين في الصيف

يجوس به خلال حدائق الأحلام،

يضحكه اخضرار شجيرة عذراء،

يبكيه عراك الصبية الأيتام،

يرفع وجهة المبتل نحو النازح المحزون والضيف.

يحدث في ليالي الوحدة الخرساء

صواحبه من الجدر الترابية

عن الطين العميق الصوت في الغيطان

يصير يمامة ويصير سنبلة وإنسانا

يقول :

غدا . . سأخرج آخر الليل

لأرجع طينة وأذوق طعم تحولي ، وأصير جميزة

أرى الغيطان تشرب زرقة الأفق

وأملأ أفرعي من طيرها الليلي والأثمار

أمد يديَّ أحضن أوجه الريح

وأنتظر الصغار السمر في الصبح

أعلمهم غناء الأرض والأشجار . .

١٩٦٤

اختراق مملكة محرمة

خضاب العرس فوق يديه قُبَّرة مسائية

وقنديل على بوابة الأرض الرمادية

وفي قدميه وشمُ حمامةٍ برية تهتز في أفق من الحناء

وفي جنبيه ساقيةُ المواويل

تصب غناءها الطيني مرتعشا على أهداب قنديل

فتسقيه عصير الطمي والأضواء

وتسقيه عصير العشب والجميز،

تطلق روحه في الليل مئذنة هوائية

تطير بقلبه زغرودةٌ كانت بجوف الأرض منسية

ويضرب في ترائبه الدم المحرور

يغمغم في ظلام عروقه الأبناء . .

* * *

تسلق شرفةَ الغيطان صمتٌ، أنجم، قمرُ
وتحت مهاجع الجميز والصفصاف ماء مقمر
بردائه الليلي ينحدر
تعوم على حوافيه فراشات سماوية
وتحت الماء . . تحت الماء مملكة تضيء قصورها
وتضيء أبهاء خرافية
ومن أبراجها ينشقُّ وجه الماء
فتخرج في انتصاف الليل جنية
تشم العشب فوق الشط، تمسح شعرها
بالضوء والكافور
وتحت قميصها نهدان من ذهب ومن مرجان
تعري صدرها للريح كي يتنفس النهدان
فيرتعشان حين يجوس بينهما يحط عليهما القمرُ

وترقد في سرير الجسر عارية . . وتنتظر . .

* * *

وينطلق الفتى الريفيُّ قبل زفافه عبر البنايات الترابية

يجوس خلال أرض القمح والأقمار والظلمة

يغافل أعين الليل

تساوره الهموم الخضر والأعراس والأحزان

ويسرع في طريق النهر . .

يذهله سرير الجسر بالتعب

«تُرى . . من أي أرض هذه العذراء!

مهاجرةٌ رمت أثوابها في النهر؟ »

دخلتُ مدينة سفلية في الصمت مطمورة . .

- : لماذا جئت يا إنسيُّ حتى صرت في أعتاب مملكتي؟!

لقد عكَّرت نزهتيَ المسائية

رأيتَ محرما، وفضحتَ يا ابن الطين أسراري

- : أضلَّتْني الرؤى حتى نسيت مسالك الأرض

وساقتني التهاويل السماوية
إلى بستانك الممدود . .

* * *

تدور الأرض تحت حبائل القمر
وفي النهدين فاحت زهرة الخشخاش
وفي العينين أشرعة خلال الصمت والمجهول تبتعدُ
يمرِّغ وجهه ويشم بين جدائل الشعر
حدائقها الإلهية
يلامس كأسها فتدب فيه شرارة خضراء
يقبلها ويرتعد
يلوذ بها فتعصره، يغوص بصدره نهدان مسنونان
وينغرسان . . ينغرسان
تسير به إلى أبراجها وقصورها وتغيب تحت الماء
وتحت الماء يشهق دهشة
ويراقص الجنية المبهورة العينين

١٩٦٤

أصـوات

بقلب الليل . . تحت السلم الطيني ناديتُ:

«خذيني وارحميني من صرير الباب يا أماه

فإني لم أزل يقظان مذجئت

وصوت الباب يشنقني، يساقط ثلجَه الليليَّ في قلبي

ويغرس نابه في ركبتيَّ، يطير من ركن إلى ركن

فينفض ريشه المسنونَ في عيني

تعاليْ . . ليس في قنديلنا زيتُ

تعالي واطرحي من شعرك المجدول قمصانا

وضميني لأغفوا ساعة ما بين نهديك . .

- : لماذا خفت يا طفلي الخفيف القلب

أنا في السطح . . أحضر من رياح الليل إبريقي
أسامر نجم «محيي الدين»
وأستسقيه . .
لكنني أراه يطير منطفئا خلال الغيم
أمد يديَّ . . علَّ صُبابة من مائه تروي
جذور الحزن أو تنسلُّ تحت مرارة الريق .
-: خذي رأسي على ساقيك يا أماه
ضعي رأسي على أرجوحة العطر التي
تهتز في الزنار والجلباب
خذيني قبل أن ينقضَّ قطُّ الليل عبر الباب
أخاف بريق عينيه
يسمِّرني إذا التمعت خناجر عينه النارية الأهداب .
-: تكلم أيها الطفل
وكسِّرْ خوفَك المسلوخَ واطرد رعبك

الشبحيّ في الألفاظ

سأهبط،

لم يعد نجم ولا جادت سواقي الليل بالماء . .

* * *

- : ضعي ثدييك في كفيّ يا أماه

دعيني مرة أندس بين حدائق اللبن

فأرقص عاريا وأطير تحت سمائها البيضاء

وأنظر شمسها البيضاء

وأغرف طميها وأعوم في تيارها الأبيض

وأنعس ساعة في شاطئيْ صمت وموسيقى

ضعيني مرة في لونك القمحي يا أماه

لأطرح جسميَ المقرور فوق مسارج الدفءِ

وأحلم حينما أندس في عينيك بالأقمار

وأغسل قلبي الظمآن بالأمطار .

خذيني مرة لمآذن الفيءِ

لأرقص في رنين هوائها المغسول بالليمون .
خذيني وارحلي يا أمُّ تحت جدائل الصفصاف والكافور
لأرقص مرة في النور
فتهبط من سماء الصمت - في قلبي -
يمامة حلمي الخضراء
أراقصها ونقرأ سورة الزيتون .
-: سأمنحك الدم المحرور
لتبحث فيه عن عش من البلور
وتقطف من حدائقه زهور الشمس ،
تأكل من روافد صيفه خبزا من الأعشاب والأقمار
وتطلق في احمرار سمائه الأطيار
وتنعس في دمي وتعيدني حبلى .
-: أنصمت حينما نمضي إلى القبر
أنرفع وجهنا في الليل ننظر ذئبة الغيطان في الصمت
فنصرخ دونما صوت

وهل يستصرخ الموتى مجيبا يرجم الظلمة!!
-: بقلب الليل أسمع صوت «محيي الدين»
يدق بأصبع شرّاعة الباب
ويمرق عبر شق الحائط الغربي،
يرقص طائر الخطوات،
يلعب دونما حركة
ويأكل خبزنا فيحل فيه الخير والبركة
ويغمس كفه في الماء والزيت
فلا نحتاج طول العام
-: سمعت الآن قطا يخمش الصمتا
ويُدخل رأسه بقدورنا كي يلعق اللبن الحليب
ويلعق الزيتا
وينفض ذيله بدقيقنا..
-: صمتا أيا طفلي
فهذا صوت «محيي الدين»

يموء الجوع في جنبيه والرعب
تطارده الشموس السود والذئب
وتأكل من حشاشة عشبه الديدانُ . .
يمرق عبر شق الحائط الغربي
يملأ صدره بروائح الدار
ويقرأ بعض ترتيلاته ويعود في الفجر
فإن الموت يحمله على فرس من النور . .

١٩٦٤/١١/٣٠

دمٌ على الأيدي

«قصيدة في ثلاث لوحات»

اللوحة الأولى:

تفتَّح قلبه يوما على الشمس
أدارت رأسه أنشوطةُ الهمس
(دجاجتنا لها ديكان
ومخزن قمحنا نهبته أيدينا
لنطعم سارق الأعراض
ثم نجوع بعد بشنس)
ويمرق عبر دهليز يغطُّ بصمته الليليِّ
مرتعشا وسأمانا
يغمغم بارد الشفتين عريانا
يحدق في زوايا الدارِ،

يسمع ما تكتّمه الحجار الخرسُ

«كيف يفرُّ من جدراننا الشبحُ

نكاد نراه،

لكن أخطأته بظلمة الغرفات أيدينا»

فتح أمه بابا يصرُّ صريره الصدئيَّ

«هذا الصوت يشرب من دمي المسجون

ويشعل مقتيَ المدفون

لما في الدار من مبهم

وما في الأعين السوداء من تاريخها المظلم.»

ل له: انتظرنا وجهك المصفرَّ من جوعٍ

لتأكل في وليمة عيدنا المبرور

نعس في حِرام الصوف حتى يعبر الديجور

فيه من الريح الشتائية.

بلُ وجهه الثلجي، تعطيه الطعام البارد المرق

تحمل قبضةً من أرزها المعجون في الطبق

وخبزا ناشفا ما بين مهروسٍ ومحترق
فيغرس في سواد عيونها عينيهِ . .
(في أغوار عينيكِ
ملاحمْ ظلمة حمراء
ونبعٌ طافح بالصمت والشك .)
يقول لها : أكلت الصبح يا أماه
فقد أعطتنيَ الطرقات بعض نباتها الطيب .
(وفي عينيكِ لم أشبع من الأسفار
ولم أبحر سوى للريح
وفارغتان عيناك
وعامرتان بالأسرار
ومظلمتان يهرب فيهما الشبحُ .)
تقول له : تدثَّرْ بالحرام الصوف
فهذا الليل مرتعد من البرَدِ
يقول لها : تفحُّ النار في كبدي .

(هبيني ثديك المسموم

لأرضع سمك الأخضر

فأرجع مرة أخرى صغيرا مغمض العينين

وطفلا دون ذاكرة، بلا ظل

خذيني مرة أخرى إلى جنبيك

دماءً ليس تنعقد

وماء طائرا في الصدر والثديين.)

تقبل وجهه الثلجي.. يرتعدُ

يفر اللون من عينيه، يهوي فجأة بالخنجر المسنون

على الأم التي شهقت بكل كيانها للموت

يشق الصدر يقطع قلبها ويدسه بثيابه الحمراء

فيرتعش الصدى الأحمر

وتنكفىء الظلال الحمر في عينيه،

يهرب قبل أن ينهدُّ سقف البيت

يفر خلال أرض أقفرت إلا من الأعين

يفر خلال أحداق بلا أجفان..

اللوحة الثانية:

جوقة من الرجال :

خلال الأرض ينسكب الدم المسفوح

ويصرخ قطرةً قطرة

لكي تقتصَّ أيدينا

لما أراده نصل القاتل السفاح

من الأحلام والنشوة

وغرغرة التشهي الحي في الأعماق.

جوقة من النساء :

خذوه قبل أن تتراكض الأخبار

بما فضحتْه عيناه

خذوه قبل أن تتقلّب الأشباح

لتهدم في ظلام الليل مخدعنا

خذوه قبل أن تتنفس الأخطار

فيحلم بالنصال الخرس صبْيتُنا

وتخنقهم روائحنا

ويغتسلوا بنبع دمائنا الفوّار.

جوقة الرجال:

ويا للعار

إذا ما أفلتتْه مشانق الأشجار

ولم تصرعْه تحت نصالها الأمطار

جوقة النساء:

خذوه قبل أن يمضي إلى جميزة المغرب

وجيئونا به في القيد كي نسقيه

ونطعمه قبيل الموت أو نبكيه

جوقة الرجال:

ستقتله قبيلتنا بكل رجالها الأبرار

وتملأ من دماه النهر والآبار

ستشنقه بكل فروعها الخضراء

لتنعس أمهات رجالها مزمومةَ الشفتين

جوقة النساء :

دعونا نمسح الزَّبَدَ الذي يطفو على العينين

وننظر فيهما الأحزان

جوقة الرجال :

ستطرحه قبيلتنا لتأكل وجهه الذؤبان

وتخطف قلبه الغربان

وتحرم منه دود الأرض .

فكيف نرى مشاعركن . . يأخذكن

بالأرجاس ضعفٌ قاتلُ الرحمة ! !

جوقة النساء :

سنصرخ كي تردوا جسمه المطروح للأرضِ

سنترك دورنا وسنهجر السرر الشتائية

إذا لم تدفنوا عينيه في الظلمة

إذا لم تطرحوه على عباءة أمه السوداء كي
يرتاح

جوقة الرجال:

مضاربنا محرَّمة على أضلاعه السوداء

جوقة النساء:

قساةٌ يا رجال الأرض

لأنكمو بلا أرحام

لأن صدوركم لم تنتفضْ بمسارب اللبن

قتيلته ستحصبكم بما في الأرض من حصباء

وتندبه بما قد كان بينهما من اللبن

اللوحة الثالثة:

يفر خلال أحداق بلا أجفان

يراوغ حائطا أخرس

ويرعبه اهتزاز شجيرة كثْعاء

(ولو أني تركتُ علامة الموت

لما اختطفتنيَ الأشباح

ولو أني غسلت يديَّ من شاراتها الحمراء

لما اختنقت حمامة قلبيَ الأبرص

لحطت في دمي بالنوم والصمت.)

تحط على يديه ذبابة زرقاء

وفي جنبيه حطت بومةٌ خرساء

تنقّر قلبه المصلوب

تضيق الأرض ، تنشعب الطريق مساراً مسدودةَ الأبواب

(لماذا صلّبتْك الريح يا جميزة المغرب؟!

تطنُّ بجوفكَ الأصوات

جذورُك أرجلٌ هبت تلاحقني

سأهرب من هنا . . أو

من هنا . . أو

من نهاية أول المسرب

سأمرق من هنا . . يا شمسيَ السوداء

خذيني واطرحي فوقي عباءة قلبك الطيب .)

تضيق الأرض ، تزحف نحوه شجرا وجدرانا

على عتباتها عينان سوداوان

يحدق فيهما

(لو أنني جعت

لمتُّ هنا بلا لقمة .)

ويسمع شهقةً غوّارة مغروسة في أضلع الريحِ

تدور، بنهدها نصل وفي العينين رعب صارخ الروح

يرى عينين غاربتين في جميزة المغرب

يرى وجها بلا شفتين

وفوق يديه خيطُ دمٍ بلا لون

وقلبُ الأم تحت ردائه مازال يرتعد

(ولو أني عن الجسر الرهيب الطين أبتعد!!)

يولي وجهه للريح، ينكفىء

يعضُّ الأرض يصبغ طينها بالرغوة الحمراء

وقلب الأم يجهش نادبا ويئن بالرحمة

يغرغر وهو بالغفران يرتعش

يغمغم وهو بالغفرن يرتعش

١٩٦٥/١/١٧

خــوف

قمرٌ أخضرُ

يطلع من مئذنة الصيفِ،

يفك جدائله الخضراء

يطرحها فوق الأرض عباءةَ قش ينعس فيها الطير

يعقدها في عذبات النخل عناقيداً فيروزية

يتحسس صدر الأرض العذراء

يملأه لبنا أخضر، ينبش ثدي الطين

ليفجر في أصلاب الشجر الطيب روح الأرض.

قمر أخضر

خلع الخفين وجاس خلال الماء

فاخضرَّ النبع الداكنُ واخضرت في الشط جذور الريح .

قمر أخضر
يشرب من عينيه يمام الصيف
يرتعد سرورا في التيار
نهداه انفتحا في الأغوار
وانسكبا حتى نام النحل التائه في الأزهار .

لا تنظر للقمر الأخضر
لا تغرس عينيك الجائعتين بعينيه الخضراوين
دعه يشبع من أثمار الريح
ويجمِّع في رئتيه الأبخرة الأرضية
ويدس يديه برحم الأرض ويغرس قدما في الآبار .

لو نظرت عينك في عينيه

لانسكب الطحلب من نهديه

وامتدت تحت سماء الصيف يداه المعشبتان

لتكوِّر عشبَ الضوء وطميَ اللبن الأخضر والأحلام

يلقيها في عينيك رغيفا يحجب عنك الأرض

فتظل على أطراف الجسر

مغمومَ القلب شريدا تنزف بين العالم والأحلام

لا يأتيك النوم ولا تستيقظ حين يعود الصيف . .

١٩٦٥/١/٢٣

طقس

حبلى
تعقد بين ضفائرها الريح، وتحمل جرتها الفخّارية
وتغني حتى يرجع عنها الموت:
(طفلي يرقد فوق سرير الدم
يتنفس في ظلمات الرحم ويحلم بالقمر المعتم
والخوف شموسٌ وبلاد للمطر الأبكم.)
تحمل جرتها الفخارية
وتمر على جسر من شجر وتباريح
وتغني حتى يرجع عنها الموت:
(طفلي يتقلب في الأحشاء

ينتظر سواقي اللبن الحي

طفلي عينان مفتحتان على الظلماء

شفتاه اخضرت فوقهما أعشاب الصمت .)

فوق الجرة أغفى سرب يمام

وانحدرت في أطراف النخل الشمس

وانحدرت في إيقاع المغرب سابلةٌ وحداءٌ

وثغاء قطيع الأغنام

ويصلصل وقع الأقدام

فتغني الحبلى حتى يرجع عنها الموت :

(اعطوني حملًا أبيض للطفل الموعود

اعطوني فرعا من جميز الشط

يتهدل فيه التين وتخضر الأوراق

طفلي يضحك بين السرة والزنار

ويغني لغة الطير ، يفك شرائط شعري الخضر .)

* * *

واربت الظلمةُ باب الشمس

والحبلى تبكي، يشهق ثدياها المرتعشان:

(طفلي في ليل الرحم يفك ضفائره السوداء

فيعشش فيه الشبح الدامي

فارحمني . .

وانزع هذ الشعر الشائك من طين الأغوار .)

تجري الحبلى،

جسر من ليل البوص، رياح الصيف المعتمِ،

نهر من أقدام الطمي،

الصيف يمر بما في الطمي من الأسرار

ثمرا يتفجر طيرا، تصرخ:

(يا أطيار

فلْيرسُبْ هذا الطمي على عينيه اللامعتين

كي يحلم بالشهر التاسع

منتظرا ساقية اللبن الحي على أبواب الأرض .)

١٩٦٥/٣/٢١

مُهْرُ الصيف

من أطلق مهرَ الصيف!!
يجري بسنابكه الخضر على أطراف الجسر
بصهيل صلصل فيه جَرَسُ العشب
وزفيرٍ ينضح بالزبد الفضي.

من أطلق مهر الصيف!!
ينطلق فترقص معرَفةٌ خضراء
يندفع إلى تيار الماء
مرتعشا يقطف أزهار البشنين
يقتات من الياسنت ويركض في الأعماق

ويشم العشب النابت في أرحام الطين
ويخوض خلال الطحلب والأصداف
يندفع إلى الشمس المصلوبة فوق الجسر
ويشبُّ على رجليه وتلمع في عينيه الريح

من أطلق مهر الصيف!!
طفلي في ظلمة بطني يحلم أحلام الشهر الرابع
يتخلّق مني عضواً عضوا
يتدفق فيه الماء الطافح من جنبيْ
ينسلُّ إليه عبير الأرض خلال الدم.
من أطلق مهر الصيف!!

حمّلني ما حمّله الطميُ من الأثمار
أثقلني بالطير النائم في الأشجار
وانطلق.. فدق الحافرُ وجه الطفل

أسقط حملي . . أجهضني مهر الصيف .

نبع من ذهب وجزائر فضية

وطيور حمرٌ شتوية

وزهورُ دماء

وضفائر ماء

وشُموسٌ تلمع في العينين الصافيتين . .

من أطلق مهر الصيف!!

١٩٦٥/٣/٢١

كـوكبٌ أحمـر

خلال حوائط القرية
يطير القبَّرُ المذبوحْ
وتنهمر الخفافيش المسائية
وتنطفئ الفوانيُس
خلال هوائها تهوي العناكبُ،
والجنادبُ في مراثيها الخرافية
تصرُّ صريرَها الوحشيَّ. . تنهش أنجم الظلماء
فتمتلئ القواديسُ
رمادا من زفير الجوع

* * *

وقريتُنا عجوزٌ خلّعتْ أسنانَها اللقمة
على الثديين تنسرب الخنافس، يسرح السوسُ
وفي العينين قنديلٌ من الظلمة
تؤرْجحه فصولُ الطينة الجدباء
وفي الجنبين نصل مرهف الحدين مغروسُ
بغير دم يفجره، بلا ألم
ووشمٌ فى عظام الرأس ملتهب ومطموسُ
وتشرق في ضفائرها الشموس السود،
تصدأ في بكائياتها الأقمار.
وقريتنا تفتش في شقوق الصيف عن سحلية خضراء
وعن لبن الغراب وحنطة الحرباء
فتهرم، ثم ينطفئ الدم المسجون في الرحم
ومن أفخاذها ينسلُّ نسل ضائع العينين
وعاما بعد عام يسكب الأبناء
صبيبَ دمٍ، يذيبون المواويل الخرافية

بعين الشمس، يغترفون طين العالم السفلي والأحلام
وينكفئون عاما بعد عام دونما لقمة . .

* * *

وقد سكنت عفاريت الدجى طاحونةَ القرية
أقامتْ عرسَها في صمتها، رقصت على صدأ القواديسِ
وقريتنا تولول تحت مشنقة الرياح . . فيطرح الجوعُ
زهورَ البوم والأحطاب
يدق الصبيةُ الأبواب
ويغترفون من قمر المجاعة والنجوم الخرس
أشعارا رمادية
يدق الصبية الأبواب
ويبتهلون للشمس البدائية
يدق الصبية الأبواب:
(تعالي من جسور الثلج
يا شمس السموات الجليدية

ويا قمر السنابل . . نحن مطروحون في الظلمة
ومحرومون من طعم الطحين وخضرة الأعشاب
ومن طعم الخميرة وهي تزفر حمضها الشهويَّ
في رحم من الفخار
جياعٌ نحن يا قمر السنابل . . فادفع الطاحونة البكماء
لتمنحنا - ولو ملء اليدين - طحينها المخلوطَ بالحلبة
ويا قمر السنابل والأساطير
تفجَّرْ عبر قنطرة المجاعة كسرة كسرة . .)

* * *

خلال حوائط القرية
تغمغم أفرع الشمس البدائية :
(تقهقه في الطواحين القواديسُ
على نهدين نبقيين ، تضحك في رشاشٍ من
دم الطفل العميق الصوت .
يضحك صوتُها للشمس ، تفتح بابها الليليَّ
بين دم وبين ولادة صعبة . .)

١٩٦٥/٤/٥

شارات

كانت تشرب عاصفة الرمل وتأكل خبز الشوك
فتصبَّب من إبطيها عشب الجوع
وتراكض في عينهـا مُهـر العطش، اخضـرَّ الحنظل في
الينبوع

والبرق عصاً والليلُ طريق
(يا أرضُ يا مطوية
في الغيمة الشوكية
فلتأكلي الإعصار
ولتشربي الأمطار
من نارك الفلكية .

يا أرض يا عريانة

فلتزحفي جوعانة

مقطوعة النهدينِ

مشقوقة الكعبين

ولتعبري التبّانة .

يا أرضنا يا أرضْ

فلتملئي نهديك

ولتغسلي رجليك

بالطمث والحمّيض .)

حملت حملا مكذوبا ، رقدت فوق سرير الطلق

فتعارك بين يديها المردَةُ والأقزام

وانكسر الخنجر بين الغالب والمغلوب

وتدلى ثمر الشجر المحترق المقطوع

يمنحهم عنبَ الجوع

يمنحهم شارته :

وجهاً مصْفراً

أوعينا مطفأةً

أو صوتا مختنقاً

يمنحهم ما بين الحرب وبين العرش

أسلابَ الحنظل والزقّوم.

(يا أرضنا . . يا أرض ياعذراء

فلتدفني في صدرك الأبناء

ولتأكلي من صدأ القيدِ

ولتشربي من رغوة الرعد

يا أرضنا . . يا أرض يا عذراء

فلترقدي بأسرة الظلماء

ولتشربي من نطفة الأشياء

يا أرضنا . . يا أرض يا عذراء

فلترقدي . . يا كوكبي المكسور

ولتُنبتي من قلبك المهجور

أقمارَكِ الحمراءَ والخضراء
والشمسَ والغابات والأبناء
يا أرضنا . .)

الليل القاسي يركب مركبة الأحلام
وحصان الغيم الممطر يصهل في الديجور
حافره دغدغ ثدي الأرض
فتكسر فيه الملحُ، انبجس اللبنُ،
اخضرّتْ بالعشب الأحجار
ضحكت . . فتهدّل تحت ضفائرها واخضرَّ الآتي
من ورق الأشجار
ضحكت فانشق على نهديها مجرى النهر،
امتلأت بالآتين من الأبناء
والليل القاسي يركب مركبةالأحلام . .
١٩٦٦/٤/٩

تجسدات من الريح القديمة

الريحُ الريح الريحْ
فتحت صندوق الرمل
توارت تحت قميص الليل
اغتسلت في خلجان العتمة والتبريح .
حملت إيقاع الجوع وشارته الدهريةَ
هربت في الطرق السفلية
أكلت فاكهة الحلم المذبوح .
الريح تدلت في أنشوطتها الملوية
فتساكب من ثدييها لبن التكوين المسفوح .

* * *

الريح الريح الريح
كانت غفوتَنا تحت جسور اليأس
ثريدتَنا الحجريةَ في أمسية العرس
جريمتَنا وبراءتَنا . .

الريح الريح الريح
مزقها سيف النار
أطلقها من أنشوطتها المعقودةِ ،
طارت تلعق وجه الأرض
دخلت في رئة الصَّهْد الرمليِّ
ابتردت في النبع السفلي
انغرست نخلا في واحات العار
وارتدت ترقص في مدن الأحجار . .

* * *

الريح الريح الريح
حملتْ أسنان الموتى

نثرتْها في عقب الأبواب وفي عتبات الدور
فتناهشنا إيقاع الرعب
تلوَّتْ خطوتُنا في طرق الخوف
وداستنا فرس الديجور . .
الريح الريح الريح
تتخبط في طرقات العالم
ترقص في كتب التعزيم
تفرْفِر في كتب السيمياء
وتغني :
تأكلكم أسنان الموتى تأكلكم أسنان الأحياء
أسنان الموتى
والأحياء . .
١٩٦٦/١١/٣

ثنائية للقمر والعنف

أغنيـــة :

طبق البلّور

في الليل يدور

مرتعشا، يصعد سلَّمَه المسحور

وبناتُ الحور

يأكلن الخوخ الأزرق واللوز المقشور

يرقصن على إيقاع الشهب الدوارة

أو يعقدن جدائلهن على قمر البلور . .

مردود الأغنية:

القمر جديلةُ عشب معقودة
والنهر الأسود آهة جوع ممدودة
والليل على أكتاف الحراس
أزرارُ نحاس
وعيونُ بنادقهم صمتٌ مشويٌّ
وجيوشُ جراد محشودة . .

١٨/٣/١٩٦٧

طقوس وأحراز شخصية

أقرأ ما تكتبه الضفائر

أسمع ما تقوله الشمس الغريبة المضمخة

بالزيت والنيران والحنّاء

أسمع ما تقوله الضفائر المدوَّخة

من حمحمات الخيل أو تهانفات الموت والطفولة

وشهقة الفحولة الضائعة المنسلخة

– من جسد العالم إذا يشيخ –

للرمال والأغنية المجبولة

من رغوة الوجوه والعقم الذي ينبت في الأصلاب

ومن سنابل الملح التي تنبت في الأرحام

ضفيرة :

خبَّأتُها - من قبل أن أبدأ في الأسفار -
في مصحف الدهشة والأشعار
خبأتها بين عروق نخلة ، وكانت النخلة
تضرب جذرها في لبنٍ الأساس ،
ترفع الجذع كأنه القبلة
وتحمل النهار .

ضفيرة :

في رهج الأيام
أكلتُ من سنبلة الآلام
وطرحت شجيرةُ الجوع زهورَها الصفراء فوق الرقبة
والقمر الأسود فوق الرأس
تنبت في مداره سنابلُ الرعب ،
ويفقس النهار
أغربةً بيضاء .

كان النهار مثقلاً باليأس
فانكسرتْ من تحته النخلة
وانفصمت عرى فقار الظهر
حين رأيت الشَّعر
في الريح مبيضّا مبدداً يقطر منه القهر . .

٣٠/ ٥/ ١٩٦٧

فهرست

الصفحة

رقم الإيداع ١٠٣٠٧ / ٩٨
الترقيم الدولى 1 - 0482 - 09 - 977

دار الشروق
القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصري ـ رابعة العدوية ـ مدينة نصر
ص. ب : ٣٣ البانوراما ـ تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
بيروت : ص. ب : ٨٠٦٤ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٩٦١)